رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البرهان

في

دلالة خلق الإنسان والحيوان

على وجود الصانع الرحمن

للإمام العلامة المحدث الكبير زين الدين عبد الرؤوف بن علي الحدادي
المناوي الشافعي
المتوفى سنة ١٠٣١هـ

تحقيق ودراسة
الأستاذ الشريف
أبي الحسن عبد الله بن عبد العزيز الشراوي

الرسالة
دار الرسالة للنشر والتوزيع
القاهرة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البرهان

في

دلالة خلق الإنسان والحيوان

على وجود الصانع الرحمن

للإمام العلامة المحدث الكبير زين الدين عبد الرؤوف بن علي الحدادي
المناوي الشافعي
المتوفى سنة ١٠٣١هـ

تحقيق ودراسة
الأستاذ الشريف
أبي الحسن عبد الله بن عبد العزيز الشبراوي

دار الرسالة للنشر والتوزيع
القاهرة
الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة جميع الحقوق

منشورات
علاء شحاتة
دار الرسالة - القاهرة

الرسالة

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الرسالة- القاهرة- مصر، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزءا أو تسجيله على أشراطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

Exclusiv Rights By
Dar Al- resala Egypt- Cairo
No Part Of This Publication may be Translated, Distributed in any from or by any means, or stored in data base or retrieval system, without the prior written permission of the puplisher

رقم الإيداع:
٢٠١٧/٥٠٢٨
الترقيم الدولى:
٩٧٨-٩٧٧-٦١٨٠-٦٠-٤
الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار الرسالة للنشر والتوزيع
القاهرة
٢ شارع أحمد حامد أبو الحسايب (الصناعة سابقا)
متفرع من عباس العقاد- ناصية مستشفى التوفيقية
تليفاكس: ٠٢٢٢٦٠٥٦٢٥
محمول: ٠١٢٢٣١٢٠٦٤٣
البريد الألكترونى: **Daralresala @yahoo.com**

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ مقدمة التحقيق ❁

الحمدُ لله رب العالمين، خلَقَ فسوَّى، وقدّرَ فهدَى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن أرسلهُ الله بدِين الحقِّ والهُدى، سيِّدنا محمد الذي خُصّ بالأُفُق الأعْلى، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ نُجُوم الهُدَى، ومَنَارات الاهتدا.. وبَعْدُ:

فهذا الكتابُ أحدُ مؤلّفات الإمام المناويّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى- قد سماه: «البُرْهَان في دَلَالَةِ خَلْقِ الإنْسَان والحيوان على وُجُودِ الصَّانِعِ الرحمن».

قصدَ به رَحِمَهُ اللهُ إيْضَاحَ البراهينِ- عقليّها ونقليّها- لكلِّ من يتفكّر أو يُبْصرُ أوْ يعي أمْرَ نفْسِهِ.

فبدأ كتابه بالتفكُّر في خَلْق الإنْسانِ وأعضائِه وحكمتها ووضْعِها على هذا المثالِ العجيبِ.

ثُمَّ ثَنّى بذِكْرِ الحَيَوان، وما فيه من إعجازٍ ودلالةٍ لكُلِّ من يُبْصرُ ويتدبّرُ.

وقد اتخذ العلّامةُ المناويُّ رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه- المنْهجَ الوصْفيَّ في تأليف كتابِهِ المَاتِع هذا.

وكانت مصادرُ المناويّ في كتابه هذا قليلة لا تتعدّى أصابع اليدِ الواحدة، وهي: «الإحيَاء» للغزالي، و«تفسير الفخر الرازي»، و«محصّل أفكار المتقدّمين»- له، «نَحْل عِبر النحل» للمقريزي.

وقد ذكر أنه رجع إلى كتب الماوردي، ولم أجد ما يؤيّدُ ذلك- والله أعلم.

* ويأتي هذا الكتابُ كحلقة مهمّة في سلسلة مؤلَّفات علماءِ الإسْلَامِ في جَانب الإعجاز العلميّ بشقّيه «الأنفس، الآفاق».

وقد قدمناه على غير كباكورةٍ لأعمال علميّة في هذا الباب الواسع المهمّ.

واللهَ أسْأَلُ أنْ يَنْفَعَ به كُلّ قارئ وسامع

كتبه

الأُستَاذ الشَّرِيف

أَبي الحَسَن عَبد الله بن عَبد العَزيز الشَّبراوِيّ

خَادم السُّنّة النبويَّة

رقمع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

❁ ترجمة الإمام المناوي ❁

على سبيل الاختصار(١)

الإمَامُ الفقيهُ المحدِّثُ المؤرِّخُ المتفنِّن زَين الدين عبدُ الرؤف بن عليّ بن زَين العابِدِيْنَ الحَدَادِي ثُمّ المنَاويّ القَاهِريّ الشّافعيّ.

وُلِدَ سنة ٩٥٢هـ.

وتفقّهَ بأبيه وَأخَذَ على الرمليّ والعبّاديّ وغيرهما.

وتوفّي سنة ١٠٣١هـ وهُوَ الصحيح.

وألّفَ المؤلّفات الكثيرة الرائِعَة، ومنها:

١ – هذا الكتاب المفيد «**البُرهان في دلالة خلق الإنسان والحيوان على وُجودِ الصّانع الرحمن**» والذي يُطْبَعُ للمرة الأولى.

٢ – **فيض القَدِيْر في شرح الجَامِع الصغير للسُيوطي** – مطبوع.

٣ – **شرح القَاموس** – مخطوط.

٤ – **الكواكِب الدُّرّيّة في منَاقِب السَادَة الصُوفيّة** – مطبوع.

٥ – **الفتوحَات السُّبْحانيّة في شرح الألفيّة للعراقي وهي ألفية السيرة** – مطبوع.

٦ – **التوقيف على مهمّات التعاريف** – مطبوع.

وغير ذلِكَ(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) اكتفيت هُنَا بالاختصَار في ترجمته؛ لإفرادِ وَلدِه ترجَمَة حافِلَة لهُ سمَّاهَا «إعْلَام الحَاضِر والبَادِي بمقَام الشيخ عبد الرؤف المنَاوِي الحدَادِي» وقَدْ فَرَغْتُ بحمدِ اللهِ مِنْ تحقيقِه كاملًا.

(٢) خُلَاصَة الأثر (٢/ ٤١٢، ٤١٦).

❁ وصف النسخة الخطية ❁

هي إحْدَى مخطوطات دار الكُتب المصريَّة العامرة، وتقعُ في (٨٧/ ق)، وخطُّها رديءٌ جدًّا، وناسخها واحدٌ، ولم يُذكر.

وبها نظام التعقيبة، وفي كل صفحة (١٥/ سطر).

ولم أجد نُسخةً سواها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صورة المخطوطة

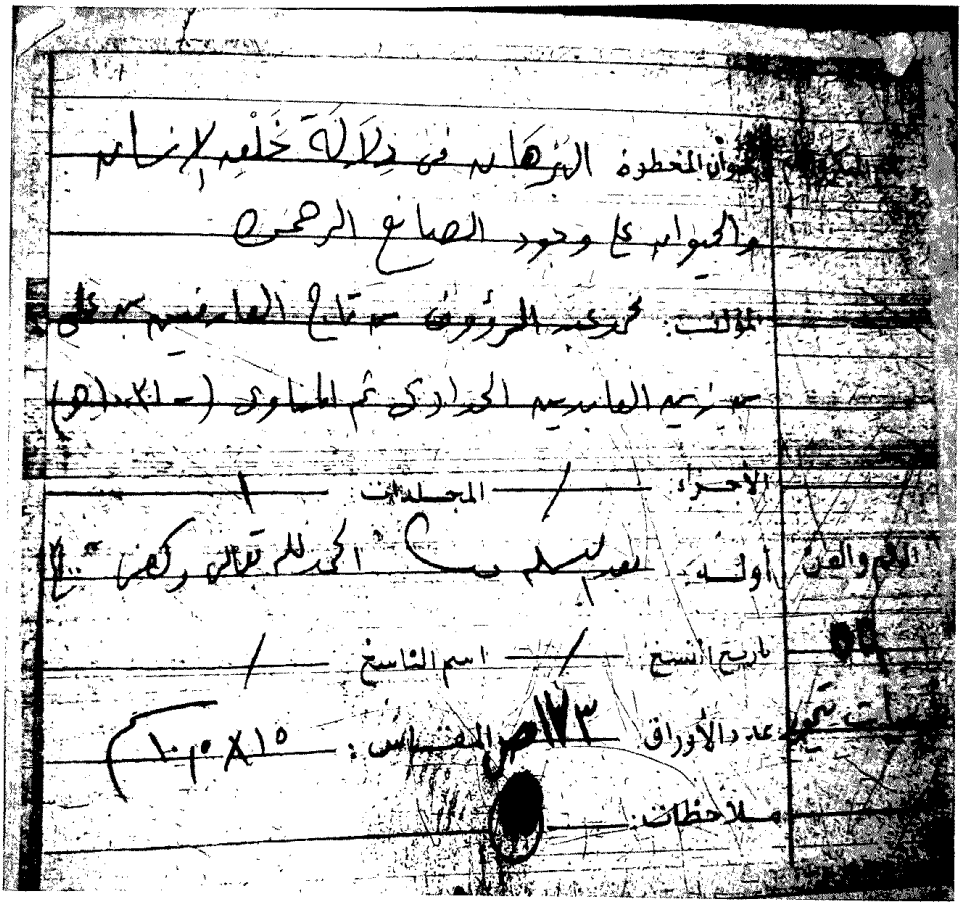

عنوان المخطوطة: البرهان في دلالة خلق الإنسان والحيوان على وجود الصانع الرحمن

المؤلف: محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي (-١٠٣١هـ)

الأجزاء: / المجلدات: ١

العلم والفن: أوله: بسم الله ... الحمد لله تعالى ...

تاريخ النسخ: / اسم الناسخ: /

عدد الأوراق: ١٧٣ ص المقياس: ١٥×١٠،١٠

ملاحظات:

بطاقة التعريف الخاصة بالمخطوطة

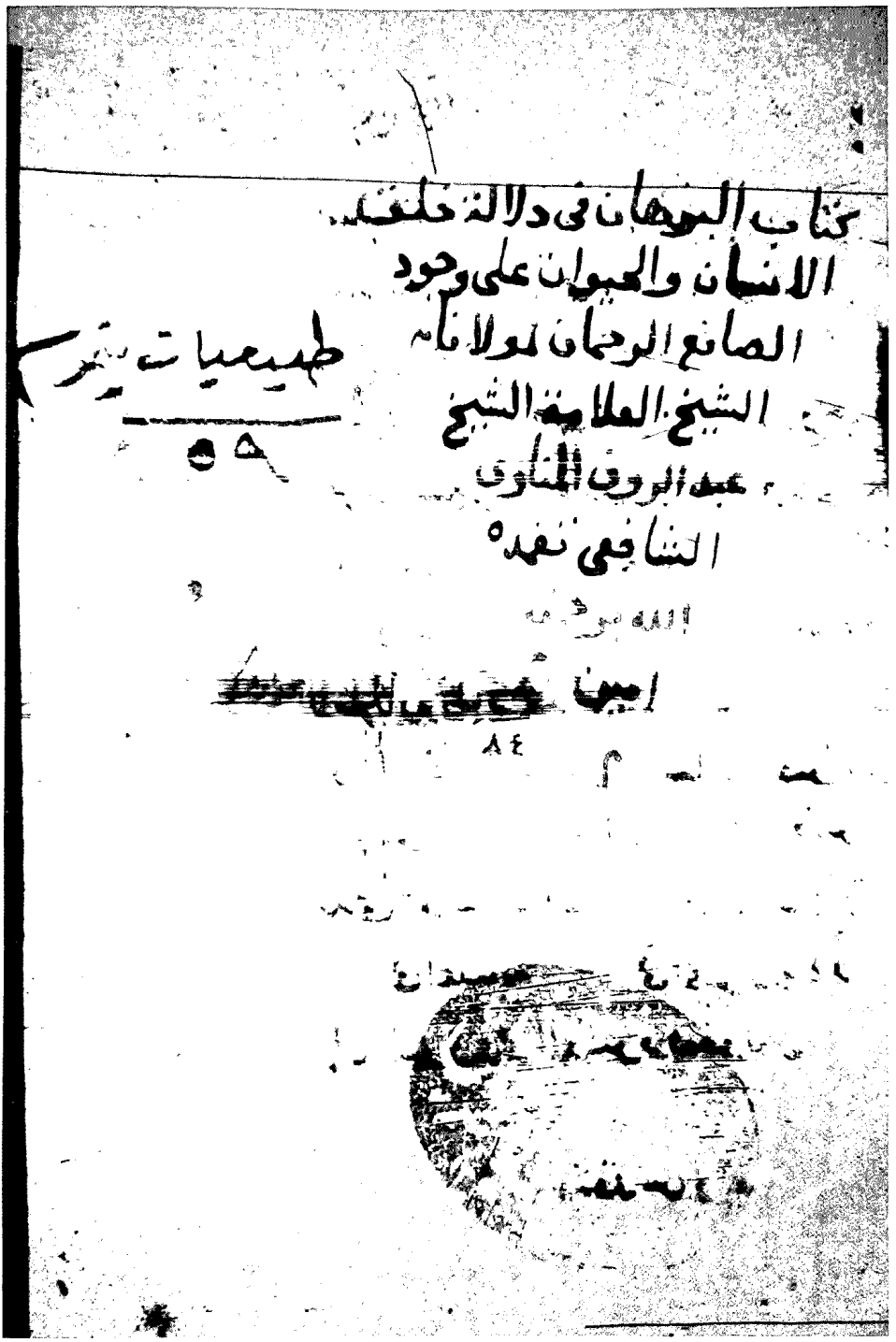

صورة غلاف المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله تعالى وكفى والصلاة والسلام على
أشرف الرسل المصطفى وعلى آله وصحبه السادة
الشرفا وبعد فهذا المزيج لطيف ومجموع
شريف يشتمل على خلق الإنسان والحيوان
من الآيات البينات الدالة على وجود البارئ
تعالى وتفرده بالوحدانية المتقطنة من كلام
[illegible] حجة الإسلام الغزالي سميته
البرهان في دلالة خلق الإنسان والحيوان
على وجود الصانع الرحمن وينحصر المقصود
منه في ثلاثة أبواب الأول في الإنسان [illegible]
الثاني في أعضائه الثالث في الحيوان وهذا
أوان الشروع في المقصود فنقول الباب
الأول في عجائب خلق الإنسان والاستدلال
بها على وجود الصانع تقدس وتفرده بالوحدانية
قال
تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون اعلم أن
المخلوقات بحسب التقسيم العقلي ثلاثة
أقسام أرواح فقط [illegible] بلا جسد
وأجساد بلا أرواح ومركبة من أرواح وأجساد
فالأول الملائكة والثاني الحيوان والنبات
والمعدن فإن قيل إن للحيوان روحا قلنا
مرادهم هنا الطبيعة التي تقوى على إدراك
المعقولات والموجودات وليس للحيوان
هذه الروح والثالث الآدميون لحصولهم
من أرواح علوية وأجساد سفلية وفي تخليقه
كذلك دليل على كمال القدرة وجلال الحكمة
لوجوه الأول أن الروح علوي والبدن
سفلي والعلو والسفل ضدان والروح
نوراني والبدن ظلماني والنور والظلمة
ضدان والروح لطيفة والبدن كثيف واللطافة

الورقة الأولى من المخطوطة

الورقة الثانية من المخطوطة

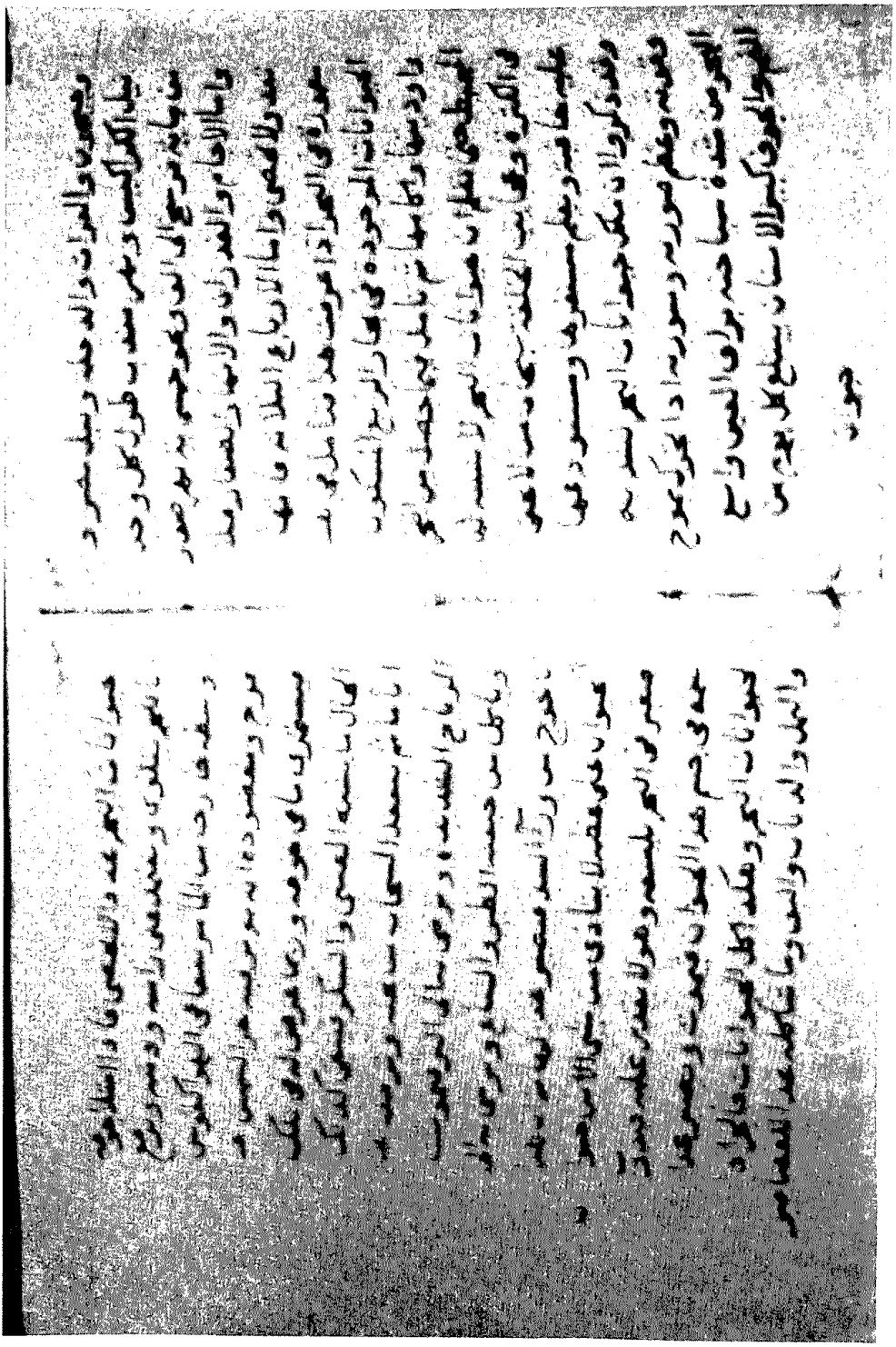

الورقة قبل الأخيرة من المخطوطة

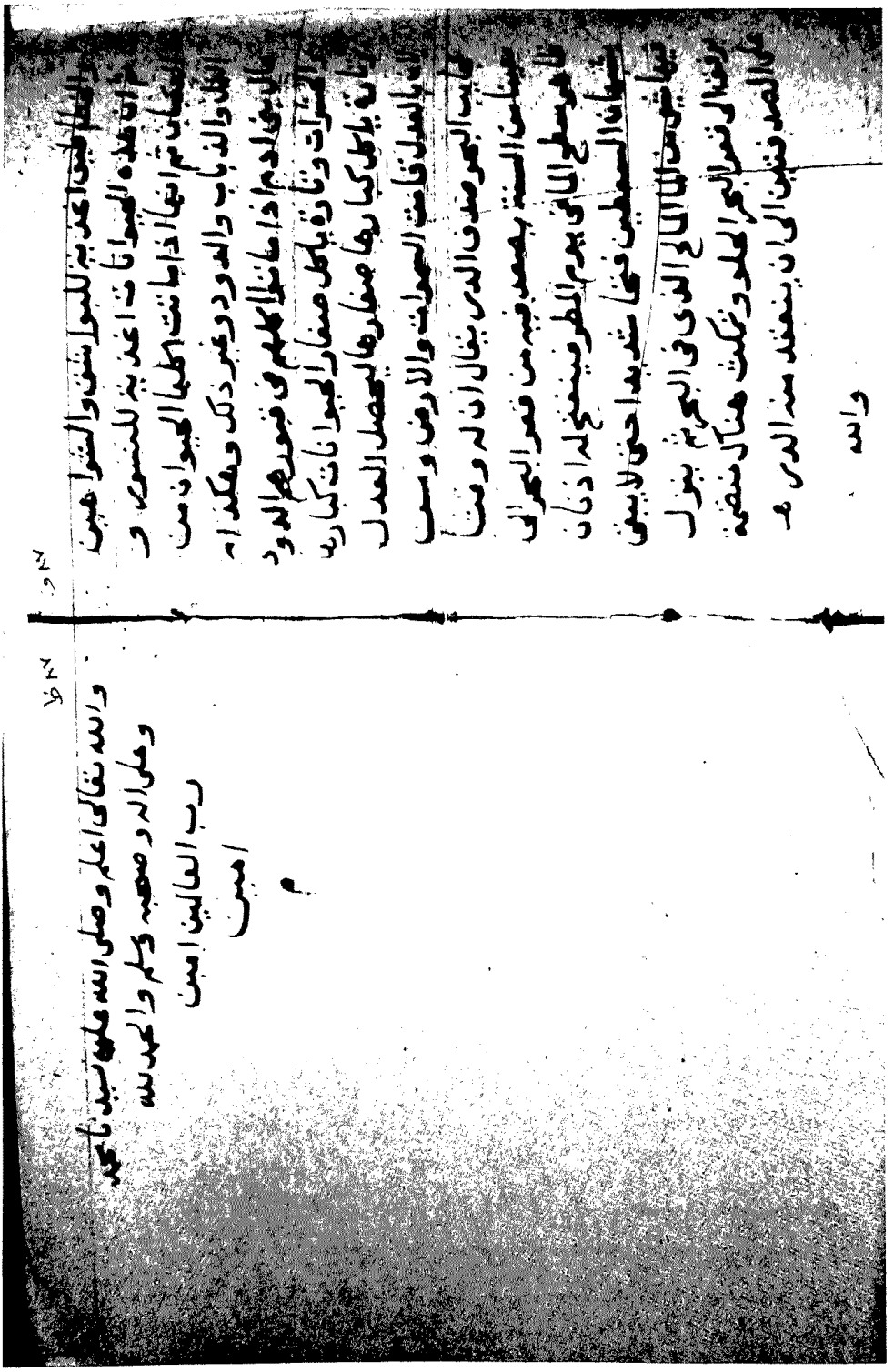

الورقة الأخيرة من المخطوطة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه تعالى وكفى، والصّلاةُ والسّلامُ على أشرف الرسل المصطفى، وعلى آله وصحبه السادة الشرفا.

وبعد:

فهذا أُنْمُوْذَجٌ[1] لَطيفٌ ومجموعٌ شريفٌ يَشتمل على ما في خلق الإنسان والحيوان من الآيات البينات الدالة على وجود الباري تعالى وتفرده بالوحدانية، التقطته من كلام الإمام الماورديّ[2]، وحُجَّة الإسلام الغزالي[3]، وسميته:

«البرهان في دلالة خلق الإنسان والحيوان على وجود الصانع الرحمن»

ويَنحصر المقصود منه في ثلاثة أبواب:

*** الأول: في الإنسان.**

*** الثاني: في أعضائه.**

*** الثالث: في الحيوان.**

وهذا أوان الشروع في المقصود، فنقول:

---

(١) يُقالُ: أنموذَج و«نموذَج» بمعنى: مِثال، وهي كلمة فارسيَّة الأصل مُعربة عن: «نَمودار».

(٢) الإمام الفقيه العلّامة الأديبُ أبو الحسن عليُّ بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠هـ- تاريخ بغداد (١٢/ ١٠٢، ١٠٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٦٤- ٦٨).

(٣) الإمام الفقيه المتكلّم أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالي الطوسيّ الشافعيّ المتوفى سنة٥٠٥.

❁ الباب الأول ❁
في عجائب خلق الإنسان والاستدلال بها على وجود الصانع تقدس وتفرد بالوحدانية

قال [٢/ ظ] تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

اعلم أن المخلوقات بحسب التقسيم العقلي[١] ثلاثة أقسام:

* أرواحٌ قدسية نُوْرانيّة بلا جسد.
* وأجسادٌ بلا أرواح.
* ومركبة من أرواح وأجساد.
* **فالأول**: الملائكة[٢].
* **والثاني**: الحيوان، والنبات والمعدن.

فإن قيل: إنّ للحيوان رُوح، قلنا: مرادهم هنا الطبيعة التي تَقْوَى على إدراك المعقولات والموجودات، وليس للحيوان هذه الروح.

* **والثالث**: الآدميون، فحصولهم من أرواح علوية وأجساد سفلية، وفي تخليقه كذلك دليلٌ على كمال القدرة وجلال الحكمة لوجوه:

* **الأول**: أن الروح عُلويٌّ والبدن سفلي، والعُلوُّ والسُّفْلُ ضدّان، والروح نوراني، والبدن ظلماني[٣]، والنور والظلمة ضدّان، والروح لطيفة والبدن كثيفة، واللَّطافة [٣/ و] والكثافة ضدان، والروح سماويٌّ، والبدن

---

(١) كذا- والصحيح: النقلي؛ لأنه واردٌ في النقل قبل العقلِ.

(٢) لحديث النبي ﷺ: «خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصفَ لكم» أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٩٤).

(٣) هذا ليس على إطلاقه، فبدن المسلم منوّرٌ بنور الإيمان.

أرضيٌّ، والسماء والأرضُ ضدَّان[١]، والروح رحماني؛ لأنه لا يرغب إلا معرفة الله تعالى ولا يفرح إلا بخدمته، ولا يميل إلا لمحبته ولا يبتهج إلا بمطالعة أنوار جلاله ولا يطمئن إلا بذكره، ولا يستقر إلَّا على عَتبة كبرياء قُدسِه، والبدن شَهواني شَيْطاني[٢]، لا يتغذى إلَّا بَدُرْدِيّ[٣] العالم الجثماني، ولا يفرح إلا بالانغماس في الشهوات والظلمات، وذلك نقيض المنافرة والمباينة بين الروح والجسد، فالجمع بينهما يَدُلُّ على الصانع القادر الحكيم الغالب ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

واعلم أنَّ الشَّوْق إلى الله مقامٌ شريفٌ، وهذا حقيقة الشوق، فنقول: الشوق لا يتصور إلا إلى شيء يدرك من وجهٍ دون آخر، وما لا يدرك أصلًا [٣/ظ] لا يشتاق إليه، فإن من لم ير شخصًا ولم يسمع وصفًا، لا يتصور اشتياقه إليه وما أدرك بتمامه لا يشتاق إليه، إذ الشَّوقُ طلبٌ[٤]، وطلب الحاضر محالٌ.

ثم الشَّوق إلى المحبوب يكون إما بأن يراه ثم يغيب عنه، فيبقى في خياله أثر تلك الصورة المحسوسة واشتاق إلى انتقال ذلك الأثر من عالم الخيال إلى عالم الحس، وإمَّا أن يرى وَجْهَ محبوبه دون بقية بدنه فيشتاق إلى كشف ما لم يره، وذلك لا يتصور في حق الملائكة؛ لامتناع أن يغيبوا عن شيء عرفوه، فأحوالهم باقية وعرفانهم دائم، بخلاف البشر وما ينجلي للعارفين من الأمور الإلهية، وإن كان في غاية الوضوح والجلاء، لكنه مشوب بشوائب الخيالات، وأما تمام التجلي فإنما يكون في الآخرة حيث

---

(١) يعني مفترقان.

(٢) هذا غير سديد وإنما يُعرف ذلك لغير المسلم.

(٣) الدُّرْديّ: الحثالة وعكر الزّيت ونحوه.

(٤) التوقيف للمناوى (٤٤٢)، التعريفات للجرجاني (١٣٥).

تزول الخيالات.

إذا عُلم هذا... فنقول: كُل مَنْ بقي على [٤/و] حالة واحدة، فإن كانت تلك الحالة موجبة به للذة، ثم بقيت فعند استمرارها لا تبقى لذة، وكذا المؤلم فهما لا يحصلان إلا عند الانتقال من أحد جانبين إلى آخر، ومثاله من المحسوس به بالنسبة إلى الأغذية اللذيذة ثلاثة:

* **الأول**: حَال الملوك وأهل الترف المتنعمين بأكل الأشياء اللَّذيذة، فإنهم لا يلتذّونَ بها.

* **الثاني**: الفقراء الذين يأكلون الخِشن المُشْبع، ولم يتفق لهم أكل الأطعمة النفيسة.

* **الثالث**: الذين يأكلون في أكثر الأحوال الأطعمة الخشنة، ولم يتفق لهم أكل [الأطعمة][١] اللذيذة إلا أحيانًا، فهؤلاء إذا وجدوا طعامًا فيه أدنى لذة يستلذون به للغاية، فالملائكة المقربون- وإن كانت درجاتهم في العرفان عالية- إلا أن تلك الدرجات باقية مستمرة، فهم كالملوك المُتَنَعِّمِيْن، وإن كانوا [٤/ ظ] مواظبين على الاغتذاء بأنوار الجلال والعظمة والاستنشاق من نسيم روح الله، لكنه لم يبق مدة في هذه الحالة ولا انتقال له عن هذه الدرجة وما وقعوا في ظلمة المعصية وانكشاف ظلمات الأنوار.

وأما الحيوان، فحاله كحال الفقراء[٢] المواظبين على البؤس والجوع والعُري ولم يتفق لهم الانتقال من هذه الحالة إلى حالةٍ لذيذة، فلا تكون لهم ألم من الحالة التي هم فيها، وأما الإنسان فتارة يقع في ظلمات الأجسام، وتارة يتخلص منها إلى أنوار عالم القدس، وسُبُحَاتِ سُرَادِقَات الجلال، فينتقلون تَارةً من الشدة إلى الرخاء وعكسه، فإذا انتقلوا من الرخاء

---

(١) مني للتوضيح.

(٢) هذا من تُرَّهات الفلاسفة وجرأتهم على خَلق الله تعالى.

إلى الشدة، ومن الابتلاء إلى النعمة حصل لهم من اللذة والسعادات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وإذا كانت هذه الأسباب متعاقبة على [٥/و] الأرواح واللذة حصلت بحيث يكون قبلها فقد وبعدها توقع حرمان كان الالتذاذ بها أشدّ، وأكمل هذا النوع من السعادة والبهجة الحاصل للإنسان غير حاصل للملائكة، ولا لجميع الحيوان.

* **الثاني**: أنه بتخليق الملائكة ظهور القدرة والحكمة؛ لأن كمال قوتهم يدل على كمال قدرة خالقهم، وكمال عصمتهم يدل على كَمالِ قدس خالقهم، أما تخليق البشر فظهر به كمال الوجود وكمال الرحمة:

أمَّا كَمالُ الوجود: فلأنه لا نِسْبَةَ بين التراب وبين جلال رب الأرباب، ثم إنه بكرمه جعل مركز المحبة ومعدن المعرفة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤].

وأما كمال الرحمة فإنه مع كثرة معاصيه أظهر منه أنواعًا من العجائب وأودع في قلبه نور عرفان جلاله، وأجرى على لسانه ذكر توحيده، وجعل عينيه محلًّا [٥/ظ] لابصار دلائله[1]، وأذنيه محلًّا لسماع كلامه، فالملائكة بهم ظهرت القدرة والحكمة والبشر ظهر بهم الوجود والرحمة.

* **الثالث**: أنّ الملائكة خُلِقُوا من الأنوار، وآثار التركيب في البشر أكثر؛ لأنه- تعالى- خَلق الإنسان من جوهرين: الروح والبدن، وأظهره من اثنين: الأب والأم، ورَكَّبهُ من المني والدم، وجعل له مطيتين: اللَّيْل والنهار[2]، وغذاه بغذاءين: الطعام والشراب، وأعد له دارين الجنة والنار؛ ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

---

(١) والقَلْبُ يتدبّر، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

(٢) يشير إلى حديث: «الليل والنّهار مطيتان فاركبوهما بلاغًا إلى الآخرة» أخرجه ابن عدي في الكامل (٤٨٤٠).

* **الرابع**: أن العبد يعرف ربه بالقدس والعظمة وصفات الجلال والإكرام، مع أنه أبعد الأشياء مشابهة له، ثم إنه لا يعلم روحه ونفسه، مع أنه هو هو، ليعلم أنّ كُلَّ ذلك بسبب مدد التوفيق والإرشاد، لا بسبب الجد والاجتهاد.

❁ **والقسم الثالث**: أن نقول: الموجودات بحسب [٦/و] التقسيم أربعة:

* **أحدها**: مَوجودٌ لا أول ولا آخر وهو الحق سبحانه وتعالى.

* **الثاني**: موجودٌ له أول وآخر وهو الدنيا.

* **الثالث**: موجودٌ له أول ولا آخر له وهو العبد والآخرة.

❁ **والقسم الرابع**: وهو الذي لا أول له وله آخر وهو محال؛ لأن ما ثبت قدمه استحالَ عدمه.

إذا علمت هذا فاعلم أيها العبدُ أنَّ لك أولًا وليس لك آخر، وكذا الآخرة فانظر هل رأيت كفؤًا للدنيا أو الآخرة، فإذا نظرت لا يخفى عليك أنك كفءٌ للآخرة.

فالحق سبحانه خَلقَ الملائكة للبقاء أبد الآباد، لكن إظهار القدرة والرحمة في خلق العبد للبقاء أتمَّ؛ لأن ذَوَات الملائكة نورانية مُبَرَّأةٌ عن الأسقام والأعلال[١] فلعله يخطرُ ببال أحد أنّ بقائها إنما هو لكونها صافية نورانية، ثم إنه تعالى أزال هذه الخَيالات بأن خلقك من أكثف [٦/ ظ] الأشياء وأشدها ظلمة وهو التراب وجعلك محلًّا للأسقام، ومنزلًا للآفات، ثم جعلك في البقاء الأبدي كالملائكة؛ ليظهر للخلق أن البقاء لا يحصل إلا بإيجاده وإبداعه وقد عرفت أن الدنيا لها أول وآخر، وأنها لا تَبْقَى وكما أن

(١) جمع علّةٍ: المرض.

من صفتها أنها لا تبقى فإنَّ مِنْ صفتها أنَّ الإنسان كلما كان أشدّ قبضًا للدنيا، وإمْسَاكًا كان فواتها عنده أكثر فإنه تعالى شَبَّه الدنيا بالماء فقالَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤]، والماء إذا غَرَفْتَ منه بقي في يدك، وإذا قبضت عليه لا يبقى في يدك، وكُلَّما كان القبض أشد كان عدم بقاءِ الماء في الكفِّ أتمُّ، فكذا مهما أخذتها بحرص فقد تحصل، وأما أن قبضت عليها بمخاليب غرضك فاتت وخرجت عن يَدكَ.

فإن قيل: نَرى البخيل الممسك للمال يَكْثُرُ ماله والسخي لا يكثر ماله.

قلنا: هذا خطأ؛ [٧/و] لأن الذي يظن أنه بقي عليه ماله ليس كذلك؛ لأنه يموت فيؤخذ ماله من غير حمد ولا أجر ولا يبقى عليه إلا الحساب ومن ينفقه في سبيل الله يبقى كله في خزائن رحمة الله ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

❁ **القسم الرابع**: المخلوقاتُ ثلاثة أقسامٍ: إما كاملة لا يتطرَّقُ إليها النَّقْصُ، وهُمْ أرباب العالم العُلْوي، أجسادهم السماوات وأرواحهم الملائكة.

وإما ناقصةٌ لا يتطرق إليها الكمال: وهي الحيوان والنبات، وبقي في التقسيم قِسْمٌ هم الذين يكونون تارة كاملين وتارة ناقصين، وإذا صاروا في حدِّ الكَمَال كانوا تحت العرش جالسين مع الملائكة المقربين مواظبين على ذكر جلال الله، مُفكِّرين في المعارج إلى الله، مُتوكِّلين على رَحمة الله منشغلين بخدمة الله، مستغرقين في [٧/ ظ] محبة الله، محترقين(١) بنور عظمة الله.

وتارة ينزلون إلى النقصان ومقام الشهوة والغضب، أما في مقام الشَّهوة: فتارة يكونون كالخنزير أُجِيْعَ ثم أُرْسل إلى النجاسات، وتارة كالذباب الذي كلما ذُبَّ آبَ(٢) إلى القاذورات.

وأما في الغضب فتارة كالكلب العقور وأُخْرى كالجمل الصَّؤُول(٣)، وتارة كالنار المحرقة والبحار المغرقة، فهو مع كونه شَخْصًا واحدًا يصدق عليه أنه ملك نوراني أو شيطان ظلماني أو خنزير حريص، وجمل(٤) صَؤُوْل وحمار صبور وكلب نابح وثعلب رَوَّاغ وفاسق خبيث وملك كريم.

ولا شكَّ أن تركيب شخص واحد يظهر منه هذه الآثار المتناقضة والأحوال المتباينة المتعارضة أدلّ على كمال القُدْرة وأظهر في إظهار الحكمة، ولهذا: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) هذا ونحوه من استعمال الفلاسفة والمتكلمين، فينبغي تركه؛ لأنَّ نور الله تعالى شفاء ودواء، فلا حرق ولا نحوه، وأمَّا حديث: «لأحرقت سُبُحاتُ وجهه... إلخ» فهذا له تفسيرٌ آخر.

(٢) عاد سريعًا.

(٣) المندفع المهاجم.

(٤) كذا بالواو.

واعلم أن [٨/ و] الإنسان الموصوف بهذه الصفات بعث إلى هذه الدنيا ليكون مسافرًا، قال عليٌّ كرم الله وجهه: الناس على سفر[١]، والدنيا دَارُ ممَرّ لا دار مقر، وبطن أمه مَبْدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته، وسنوه منازله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطاياهُ تسري سَيْر السفينة براكِبها، وقد دعى إلى دار السلام وهي أشرف البقاع وأعزّ المَوَاضع جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، لكن الطريق إليها مظلم جدًا فهو برحمته يهدي إليه وبفضله يرشد عليه وبإحسانه يدعو إليه وبجوده يعفو عنه المذنبيين ويتجاوز عن السيئات، وهذا تمام الكلام في حكمة خلق الإنسان.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (٩).

❁ خاتمة ❁

في بيان أن أول ما خلق الله من الإنسان القلب

قال الإمام [٨/ ظ] الرازي[١]: أَوَّلُ ما خَلق الله من الإنسان القلب[٢]؛ لأنه سرير الروح ومدرسة المعرفة ونقاوة الصفوة ومنزل المحبة، فلذلك كان المقصود هو بالثواب والعقاب والوعد والوعيد والترهيب؛ لأنه هو المخلوق الأول، ثم خلق الدِّماغ فوقه، والكبد تحته؛ لأن الدماغ هو منشأ الحِسّ الذي هو واسطة بين القلب وبين العالم العلوي.

والكبد منشأ الغذاء وهو الواسطة بين القلب والعالم السفلي، فجعل العلوي في العُلوِّ والسُّفْلي في السفل، والقلبُ سُلْطان البدن؛ لأنه سبب كسب السعادة الأبدية، وإلا لوجب أن يكون الفخذ أولى بهذه السُّلْطَة ولا بسبب الحدة وإلا لكانت المرارة أولى بها ولا بسبب القوة وإلا لكانت العظام أولى بها، ولا بسبب كثرة الذخيرة وإلا لكانت المعدة أولى بها وإنما [٩/ و] كانت سلطنة العلم والحكمة، فعلم أنَ من كان عَليمًا حَكيمًا كان سلطانًا بالحق ورأسًا بالحق، ومن حُرمَ من العلم والحكمة فسلطنته في التلبيس نيابة عن إبليس، والروح سلطان البدن على الحقيقة وسَرير الروح هو القلب، فلذلك كان أول الأعضاء البدنية خلقًا.

---

(١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي المتوفى سنة٦٠٦هـ، له كتب كثيرة أكثرها في علم الكلام والعقليات.

(٢) بل سمعهُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

[تشريح الإنسان]

واعلم أنّ الإنسان مُركبٌ من الأعضاء، والأعضاءُ تنقسم إلى قسمين: بسيطة ومركبة، والمركبة هي التي لا يكون جزؤها المحسُوس مساويًا لكلها في الاسم والحقيقة كاليد، فإن كل جزءٍ من أجزائها ليس مساويًا لكل اليد فهما كالعظم فإن كل جزء من أجزائه المحسوسة يكون مساويًا لكله في الاسم والحقيقة ثم الأعضاء المركبة إنما تتركب من البسيطة وهي عشرة: العظام، والأعصاب، والرباطات، والأوتار، والأردية [٩/ظ] والشرايين، والأغشية، والشّحْم، واللَّحم، والجلد.

إلا أن أصل البدن وأساسه ودعائمه العظم؛ لأنه أصلب أجزائه وفي تراكيب العظام عجائب الحكمة الإلهية تقدَّس صانعها عن أن يُضاهى[1] إذْ منها ماله رأسٌ محكمٌ وللآخر نقرة يدخل فيها ذلك الرأس، ومنها كأسنان المُشْط، ومنها ما هو ملصوق فقط يحدث تركيبه زوايا حادة ومنفرجة، وأشكال مثلثة كالصدغ والأنف ومنها: صغير وكبير وصامت ليقوى على مجوف على أنواع:

* **الأول**: ما قياسه من البدن قياس الأساس وعليه مبناه كفقار الصلب[2] فإن أساس البدن يعني كما تبنى السفينة على الخشبة.

* **الثاني**: قياسه قياس الوقَاية كعظم اليافوخ.

* **الثالث**: قياس الآلات التي بها يتم العمل، وهم عِظَام الأطراف، [١٠/و] ثم هذه العظام إنما يحتاج إليها للدّعامة والوقاية لا لتحريك الأعضاء فإنه خلق مُصْمَتًا وما كان منها لأجل الحركة تقديره في مقدار تجويفه وجعل

---

(١) يُشابه ويُقلّدُ.

(٢) يعني فقرات عمود الإنسان في ظهره، وهو المسمّى بالعمود الفقَري.

تجويفه في الوسط واحدًا ليكون جرمه صلبًا ولا يصير رخوًا بسبب كثرة المنافذ، ثم جَعَل المخَّ وَسْطه لترطبه ويمنعه اليبس المعَفِّن(١).

وفائدة زيادة التجويف أن يكون أخف(٢)، وفائدة تأكِيْد التحولة أن يصير جرمه أصلب وفائدة صلابة عظمه أن لا ينكسر عند الحركات العنيفة.

الثاني: أن العظام تكون بحسب تجاورها أقسامًا:

* **أحدها**: ما يتجاور تجاورًا منفصلًا غير موثق كعظام فقرات الظهر في النِّصف الأعلى منه، ولولا ذلك لم يمكن الإنسان أن ينتصب تارة وينحني أخرى، والنصف الأسفل منه [١٠/ ظ] عظامه موثقة محكمة.

* **الثاني**: أن يكون المفصل موثقًا ليس لأحد عِظَامه أن يتحرك وحده.

* **الثالث**: المركوز وهو ما يوجد لأحد العظمين زيادة في الثاني نُقْرة تركز فيها تلك الزيادة ارتكازًا ألَّا يتحرك بميل الإنسان.

* **الرابع**: المدوَّر، وهُو ما يكون لكلٍّ من العظمين أسنان كالمنشار ويكون أسنان كل منهما مهندمة في الآخر كما تركب الصفائح ككيفية أصل القَحْف(٣).

* **الخامس**: أنْ تكون متلاصقة، فمنها ما يلاصقها طُولًا كمفصل ما بين عظمي الساعد ومنها ما هو ملتصق عرضًا كمفصل الفقرات السُفْلى من الصلب.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٥٣٣).

(٢) قال الإمام ابن القيم (٢/ ٥٤٢): وأمّا الدماغ- وهو المخّ- فإنه جُعل باردًا واختلف في حكمة ذلك، فقالت طائفةٌ: إنما كان الدماغ باردًا؛ لتبريد الحرارة التي في القلب، ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال. وردت طائفة هذا، وقالت: لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدًا عن القلب، بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة، أو يكون قريبًا منه في الصدر؛ ليكسر حرارته... إلخ.

(٣) غطاء الرأس من أعْلى.

واعلم أنَ عظام البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا.

أما عظام الرأس فخمسة وخمسون، سبعة هي عظام اليافوخ، وأربعة عشر عظام اللحم الأعلى واثنان في [١١/و] اللّحيين الأسفلين واثنين وثلاثون سنًا.

وأما الخَرَزَات فتسعَة وعشرون خَرزةَ، سبعة للْعُنق وإحْدَى عشرة تفصل بها الأضلاع وخمسة في البطن وثلاثة في: العصعص.

وأما الأضلاع فأربعة وعشرونَ من كل جهة اثنا عشر مُؤلّف من عظام سبعة عظمان موضوعان على جانب القص واليدان معلومان وكل منهما مؤلف من إحْدَى وثلاثين عظمًا: العَضُدُ وطرفه والساعد وهما عظمان ملتصقان والكفّ وهو اثنا عشر والرسْغ وهو صَفَّان كل صَفٍّ أربعة والمشط أربعة والأصابع خمسة عشر والمجموع أحد وثلاثون ومجموع عظام اليدين اثنان وستون، وعند العانة[١] عَظْمان وفخذان وطرفاهما والرصغان وعظام القدم سبعة وعشرون.

فهذا مجموع [١١/ظ] عظام البدن والكَلام في منافعها طويل الذَّيل[٢] والنكتة الظاهرة في كيفية الاستدلال بها على وجود الصانع أنَّ العظام أَجْسامٌ صلبةٌ قويَّة متولدة من نطفة نحيفة رقيقة.

وأيضًا فهذه العِظام مُخْتلفةٌ، فمنها كبيرٌ وصغيرٌ وطويلٌ ومستديرٌ ومُجوَّفٌ ومُصْمَتٌ وعريض ورقيق، واللائق بكُلِّ موضع من البدن مخصوصٌ لو حصل في غير ذلك الموضع اختلت المصالح.

والطبيعة[٣] التي لا شعور لها وإدراك كيفَ يُمْكِنُ اسْتنَادُ تخليق هذه

---

(١) أعلى الفَرج.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٩).

(٣) فالطبيعةُ أعجز من أن تخلق شيئًا؛ لأنها مخلوقة، فلو كانت الشمس خالقة نفسها مثلًا، لما =

الأعضاء إليها وكيف يُعْقَلُ أن يُقَال هذه الطبيعة رَتّبت هذه الأعضاء الترتيب الموافق للمصلحة هذا مما لا يقبله العقل.

والفطرة السليمة تشهد بأن ذلك لا يصدر إلا عن الصَّانع الحَكيم.

وعَضَلُ البَدَن خَمْسمائة وتسعة وعشرون عضلة.

واعلم [١٢/و] أن الخالق سبحانه لما اقتضت حِكْمته أن يجعل قُوَّة منبع الحسّ والحركة الدماغ، وتكون الآلة الحاصلة لهاتين القُوتين[(١)] من الدِّماغ وَهُو العَصَب، ثم كانت لا تحس أفعالها بالعظام لصلابتها والعصب لطيف فأثبت تعالى من العظام شيئًا يشبه العصب يسمى رباطًا فجمعه مع العصب ومسكه به كشيءٍ واحد لكن هذا الجِرْم المُلْتئمَ من العصب والرباط كان دقيقًا فجعله الخالق تعالى مُتَقَوِّسًا، وملأ جلده لحمًا وغشاهُ غِشاءً دقيقًا صلبًا، في وسطه شيء كالمحدد من جملة العصب فهذا العضو هو العضلة، وفيه فوائد كثيرة:

* **أحدها**: أنه لما فيه من اللحم منشأ لمنافع كثيرة.

ومنها: أن اللحم متولد من البلغم[(٢)] الذي هو جَامدٌ رطب فيكون حَائلًا بين عظام البدن، وبين [١٢/ظ] الأجسام الصلبة الخارجة عن البدن ويكون ذلك اللحم يشبه المُضَرَّبة[(٣)] اللَّينة يجلس الإنسان عليها فلا يتألم.

* **الفائدةُ الثانيةُ**: أن هذه العضلة من شَظايا العصبة فيها قوة الحس والحركة ويتمكن الإنسان بها من الحركات الإرادية والأفعال الاختيارية.

= رضيت بأن تغرُب عن مكان وتسير إلى آخر، بل لو كفر بها الناس لأحرقتهم ولما جاء الشتاء أصْلًا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾- الآية.

(١) يعني: الحِسّ والحركة.

(٢) خلطٌ من أخْلاطِ البدَنِ.

(٣) الوسَادةُ أو المرتبة.

* **الفائدة الثالثة**: أنَّ هذه العضلات بسبب ما فيها من سلطان الرباط سبب مؤيد بهذه الأغشية الصلبة إلى مَنافع تِلْك العَضَلات.

ثُمَّ إنَّه تعالى جعل اللَّحم كالكسوة للأعضاء الأصلية وفائدته إفادة السخونة للأعضاء وأن يكون كالمُضَرَّبة اللَّيِّنَة التي إذا جلسَ عليها الإنسان لم يتألم.

[خَلْقُ الرأْسِ مُدَوّرًا]

اعلم أنه ﷻ خلق الرأس مُدوَّرًا وشَقَّ سمعه وبصره وأنفه وفيه[1]، وركَّب لكرة الرأس في بطن الأُمّ من ثلاث وعشرين عظمًا [١٣/و] وخلق تلك العظام على كيفية مختلفة وقَدَّر كل وَاحد منها بشكل مخصوص ومقدار مخصوص ووَضْع مَخْصُوص لو وقع بخلاف ذلك لبطلت المنفعة وفات الغَرَض.

ثم ركّب بعضها في بعض بحَيْث يحصل من مجموعها كرة الرأس.

واعلم أنه تعالى لما أَظْهَرَ الاحتياط في عظم الرأس لأجْلِ أنَّ الدماغ أشرف الأعْضَاءِ الإنسانية؛ لكونه محَلّ الفكر والعقل، فلما كان في غاية الشرف صِيْن[2] بأنواع من المصُوْنات وذلك؛ لأنه يحيطُ به غِشاءٌ رَقيقٌ وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر يقال: السّمْحَاق[3] وفوق ذلك الغشاء طَبقةٌ لحْمِيَّة وفوق تلك الطبقة الجلدة وفوق الجلد الشعر فتأمل أنه تعالى خلق دماغك سَبْعَ طبقَاتٍ جارية مجرى السموات السبع والمقصود بذلك الاحتياط في صَوْن [١٣/ظ] الدِّمَاغ من الآفاتِ لتكون من المتفكرين في دلائل الله في مخلوقاته لتستدل بها على جلالة خالقها.

---

(١) يعني: وَفَمه.

(٢) يعني: حُفِظَ.

(٣) السمحَاقُ: الجلدةُ أو القشرةُ الرقيقة فوق عظم الرأس. وقد عرفها الفقهاءُ بأنها الضّربة التي تقطعُ اللحم وتبلغ الجلدة الرقيقةَ المحيطة بالعظْم.

[خصَائصُ دِماغِ الإنسان]

ولنذكر الآن بعض صفات الدماغ فنقول: إنه تعالى قَسّمه طُوْلًا ثلاثة أقسام وجعل القسم المقدم محلّ الحِفْظ والتخيل، والبطن المتوسط محل التأمل والتفكر، والبطن المتأخر محل الاسترجاع والتذكر، ولكل واحد منها أمور مهمة لا تَحْصلُ للإنسانية إلا معها، أمَّا الحِفْظُ والتَّخَيُّل، فأَمْرٌ لابُدَّ منه للإنسانية لوجوه:

* **الأول**: أنَّ الإنسان يَحْتاج إلى المُهِمِّ والمهمّ بالكلام، والكلام مركب من الحروف والحروف لا توجد مجتمعة بل متعاقبة، فلو لم يكن الإنسان حافظًا لصورة المحسوسات بل مغيبها كان إذا سَمِعَ حَرْفًا، ثم ينقضي ذلك الحرف الأول ويوجد الثاني فعند حصوله ما يكون الحرف الأول موجودًا في الخارج [١٤/و] لا يبقى أثره في العضو فلا يكون المسموع أبدًا إلَّا حرفًا واحدًا، والواحدُ لا يفيد معنى وثبت أنه لولا الحفظ لم يحصل التفهم للْكلَام.

[نِعْمةُ الذّاكرَة]

* **الثاني**: أن الإنسان إذا رأى شيئًا ثُمَّ غاب عنه، ثم رآه مرةً أُخْرى عرف أن هذا الذي رآه الآن هو الذي رآه قبل ذلك؛ لأنه لمّا رآه في المرة الأولى ثم غاب عنه ثبتت صورته في الحفظ فلما رآه ثانيةً صارت هذه الصورة المحسوسة ثانيًا منطبقة على تلك الصورة في الخَيَال فيحصل الشعور؛ لأن هذا الذي يرآه الآن هو الذي رآه قبل، ولولا القوة الحافظة لم يحصل هذا المعنى ولو لم يحصل اخْتلّ نظام العالم فما كان يعرفُ الرجل زوجتهُ، والسيد عَبْده، واحتاج كل أحد إلى تعرف حال كل شخص في كل مرة يراه.

* **الثالث**: أن خاصية الإنسان أن يتوصل [١٤/ظ] بالفكرا إلى حُصُول مجهولٍ بمعلوم ولا معنى لحضور الأشياء في الذهن إلا حضور مثلها وشبهها في القوة الحافظة، والقوة الحافظة في الدماغ جارية مجرى اللوح المحفوظ في عالم السَّماوات، وبَقَاء صور المحسوسات في عالم الخيال كنسبة بَقَاء أحوال المخلوقات في اللَّوْح المحْفُوْظ[١]، فثبت بذلك أن القُوَّة الحافظة[٢] من أجل النِّعم.

ثُمَّ فيه أمْرٌ آخَرُ عَجِيبٌ لا يعرفه إلا الله ﷻ وهو أن هذه الصور التي نتخيلها ونشاهدها في خيالنا، فإنا إن نظرنا كأنا ننظر إلى قُرْصِ الشَّمْس إذا غَمَّضَ[٣] العين نشاهد قرصها حاضرًا في خيالنا كأنا ننظر إليه، فثبت أنها موجودة ثم قال قوم: إنَّ محلّ هذه الصورة الخيالية مُقَدَّمُ الدماغ.

وقال آخرون: محل هذه الصورة الروح، والروح ليس بجسم ولا جسماني.

وكُلٌّ من [١٥/و] القولين عجيب جدًا، أمَّا الأول: فلأنَّ مقدم الدماغ جِسْمٌ صَغيرٌ جدًّا، فكيف ارتسم في ذلك الجسم الصغير صُوَرُ السماوات والأرض والشمس والقمر والبلدان والمأكل والمشرب والممالك والإنسان رُبَّما يحفظ كتبًا كثيرة فكيف اتسع لذلك الجسم الصغير هذه الصور العظيمة، وقد يحفظ الكلمات التي سمعها مِنْ أوَّل عُمُره مع كثرتها، فكيف ارتسمت هذه الصور الكثيرة في هذا الجسم الصغير من غير اختلاط بعض هذه النقوش ببعض ولا شك أن هذا من العجائب التي لا يعلمها إلا

---

(١) هذا من التخرُّص والتقَوُّل- والله المستعان.

(٢) هي المسمّاة بالذّاكرة، وهي الحافظةُ للمعاني التي تدركها القوة الوهمية كالخزانة لها، ونسبتها إلى الوهم نسبة الخيال إلى الحسّ المشترك. * التوقيف (٥٩٣)، تعريفات الجرجاني (١٨٨).

(٣) يعني إذا غَمَّضَ الإنسانُ.

الخالق تعالى.

وأمَّا الثَّاني: أن محل هذه الصور جَوْهَرُ الرُّوْح وهو ليس بجسم ولا جسماني وهذا عجيب؛ لأن هذه الصُّور لها أطوال وعروض وامتداد في الجهات والأحياز ونحن نعلم بالضرورة أنَّا نحفظ [١٥/ظ] صور هذه المحسوسات.

وإذا أَرَدْنا أن نعلم كيف نحفظها عجزنا عن ذلك فسبحان الخالق الحكيم.

[كيفية الحفظ]

ومن أعظم نعم الله علينا في كيفية هذا الحفظ أنه جعل الحفظ لصور المحسوسَات الجسمية شيئًا واحدًا وفائدته أنَّا إذا سَمِعنا صوتًا علمنا ذلك الشخص؛ لأنَّ القوة الحافظة تعلم أن الذي له هذا الصوت ذلك فحينئذ يفيد السمع فائدة البصر ويقوم كُلّ واحدٍ من الحَواسّ الخَمْس مَقامَ الآخر، وأما البطن الأوسط من الدماغ فهو مَحلُّ الفِكْر، ومعنى الفكر أن تركب القوة المفكّرة[١] شيئًا من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة فيصير ذلك التركيب سببًا لاستجلاب صورة جديدة عند العقل وجميع التركيبات التي أخذتها أهْل الدنيا من بناء المساكن واستخراج الحِرف والصَّنَائع هو من [١٦/و] أعمال الصورة المفكرة تستخرج كل الصورة لهذا الطريق، ثم إن القوة العمليَّة[٢] تنقل تلك الصورة من الفكر إلى الخارج ولولا الفكر لما اهتدى إلى تحصيل المصالح ودفع الآفات، وهما أعظم النعم، ومن أراد أن

(١) وتسمَّى: القُوة الفكرية، وهي قوة جسمانية فتصير حجابًا للأنوار الكاشفة عن المعاني الغيبية.
* التعريفات للجرجاني (١٨٨)، التوقيف (٥٩٣).

(٢) وهي القوة الفاعليَّة التي تبعث العضلات للتحريك الانقباضي وللتحريك الانبساطي على حسب ما تقتضيه القوة الباعثة. * التعريفات للجرجاني (١٨٨)، تعريفات ابن الكمال (١٤١).

يعرف قدر هذه النعم، فلينظر إلى البهائم والمجانين[١].

واعلم أنَّ القُوَّة المفكِّرة كالقلم والقوة الحافظة كاللوح، فإنَّ القُوَّةَ المُفَكِّرَةَ إذا استنبطت صورة جديدة ورسمت تلك الصورة في لوح الخيال فكان المثبت هي المفكرة والقابل هوالخيال، وكانت الفكرة قلمًا، والحافظة لوحًا.

واعْلَمْ أنّا وإنْ كُنَّا نعلم بالضرورة أننا نتفكر إلَّا أنَّا إذا أردنا أن نعلم هذا الفكر ما هو صعب علينا ذلك فإنَّ هذا الذي طلبناه فإن علمناه فكيف نطلب وإن لم نعلمه، [١٦/ ظ] فكيف يمكننا طلب شَيءٍ لم يخطر ببالنا.

وأمَّا البَطْنُ الآخر من الدماغ فهو التذكر ومعنى التذكر[٢] أنه إذا خطر في ذهنه أمر ثم غاب عنه فإنه يستجلبه بعد غيبته وهذه الحالة حاصلة الآن فإنه ليس كُلُّ مَا رآه الإنسانُ وسَمعَهُ في عدة عمره يَكُوْن حَاضرًا في خياله بل الأكثر غير حاضر في الذهن لكنها واضحًا بَلْ متي أراد استحضارها أمكنَهُ، وهذا الاستحضار هو التذكر.

ولا شك أن خلق هذه القوة من أعظم النِّعَم على الإنسان وهنا حالة عجيبة تعجزُ العقول البشريَّة عن كيفية معرفتها، وذلك أنَّ هذه الصورة إذا كانت غير حاضرة فَتذَكُّرها عبارة عن طلب رُجُوعها فهذا الطلب إمَّا أن يكون طلبًا لتلك الصورة بعينها أو طلبًا لصورة بجانبها صورة كانت.

فإن كان الأول فهو محال؛ لأنها [١٧/ و] غير معلومة بعينها وإلا امتنع طلبها.

* والثاني أيضًا مُحَالٌ؛ لأنَّ الطّالبَ إذا كان صورة ما مبهمة لا هذه

---

(١) فالحمد لله على نعمته.

(٢) محاولة القوة العقلية لاسترجاع ما فات بالنسيان.

* المفردات (٢٥٩)، الكليات (٢/ ٣٥١)، التوقيف (١٦٨).

الصورة فلمَّا حَصُلَتْ هذه الصُّوْرةُ بعينها حكم العقل بأنَّ المطلوب كان هو هذه فهذا شكل عظم.

وبالجملة فكلُّ أحدٍ يجد من نفسه بالضرورة أنه يحفظُ به[1] الأشياء ويتفكر فيها ويستعيدها بعد غيبتها.

ثم العقول مُتحيّرَةٌ في مَعْرفة حَقيقة هذا الحفظ والفكر والذكر، فسبحانه مَا أعظم شَأْنه وأبْهَر بُرْهانه في إضافة ملكه وملكوته، فهذه هي الأسرار في خِلْقة الدماغ.

[آياتُ اللهِ في خَلْقِ العَيْن]

ثم تأمل أَحْوَالَ العَيْنِ[2] فإنها مركبة من ثلاثة عشر طبقة على عدد طبقات العالم الأَكْبَر[3]، فإن أعلى طبقاته العرش وتحت الكرسي وتحته السموات السبع وتحتها الطبقات الأربع للعناصر[4] [١٧/ظ] ومجموع طبقاته ثلاثة عشر، ومجموع طبقات العين ثلاثة عشر، ثم إنه تعالى خَصَّ كُلًّا من هذه الطبقات بشكل ومقدار لو لم يوجد إلَّا عَلَى وَجْهٍ آخر اختلفَتِ المَصَالِحُ.

ثم تأمل في أحوال العين من وجوه:

* **الأول**: أنَّه سبحانه جعلَ موضع الإبْصَار قدر عَدْسَة، ثم أظهر فيها صور السماء والعالم مع اتساع أطرافها وتباعد أكْنافها.

---

(١) يعني بالعقل.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٥٣٤).

(٣) العالم الأكبر: هو الفلكُ وما حواه من جوهرٍ وعرضٍ. والعالم الأصغر: الإنسانُ.
* التعريفات (١٤٩)، التوقيف (٤٩٦).

(٤) جمع عُنْصرٍ وهو الأصلُ الذي يتألف منه الأجسام المختلفة الطبائع وهي الأرض، والماءُ، والنار، والهواءُ. * التعريفات (١٦٣)، معيار العلم (٢٩٨).

* **الثاني**: أن البياض مناسب للنُّور، والسواد مناسب للظُّلْمَة، فجعل البياض مساو السواد يُفَسِّرُها القُوَّة الباصرة[١]؛ ليعلم أن حصول هذه النعمة من فضل الله وكرمه لا الطبع والخاصية.

* **الثالث**: أنه سبحانه جعل الحدقة مصونة بالأَجْفَانِ؛ لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء[٢] عنها.

* **الرابع**: أنه جَعَلَ للأجفان سَوادًا ليكون سوادها سببًا لاجتماع النور الذي بعين الأبصار، ويكون مانعًا من [١٨/و] تفَرُّق ذلك النور[٣].

* **الخامس**: أنه خَلَقَ لتحريك الحَدَقة أربعًا وعشرين عَضَلة لو نقصت واحدة منها لاختل أمر العين.

* **السادس**: أنّ العين شَبيهةٌ بالمرآة والمرآة إنما ينتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة فخلق هذه الأجفان متحركة إلى الانطباق أبدًا من غير اختيار لتنقي الحدقة تنقيةً صَافِية[٤] عن جميع الكدورات.

والذُّبَابةُ لما أنه لم يُخْلَق لها أجفان فإنها تنظف بيدها عينها عن آثار الغبار.

* **السابع**: أنه جعل العين هاديًا إلى إدراك الأشياء وسببًا إلى اطلاع غيره بواسطته على ما في قلب صاحبه، وذلك؛ لأن القلب في داخل العينين كالزجاجتين الموضوعتين، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب في الرِّضَا والغضب والنفرة والرغبة[٥] فسبحان من جعل [١٨/ظ]

---

(١) يعني العَصَب البصري.

(٢) الأوسَاخ كالعُود والتراب ونحوه.

(٣) ثم غرس في أطراف تلك الأجفانِ الأهْدابَ؛ جمالًا وزينةً، ولمنافع أُخَر وراء الجمالِ والزينة.
* مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٤).

(٤) لتبقى الحدَقةُ نقيَّةً صادفية. * خلق الإنسان (١٧).

(٥) والصِّحّة والمرض.

العين هادِيًا لصَاحب العين إلى معرفة العين، والعين على معرفة أحوال قلب صاحب العين.

* **الثامن**: أنَّ ألْطَف أعضاء البَدَن العين؛ لأن جميع الأعضاء تتَأَثَّر من الحرِّ والبرد فوق ما تتأثر منها العين وكان القياس أن لا يكون كذلك؛ لأن الألطف أسرع تأثيرًا، لكنَّا نَرَى أن الرِّجْلَ على صَلَابتها تتأثر من الحرِّ والبرد فوق ما تتأثر العين وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلافه؛ لأن الألطف أسرع تأثيرًا وما ذاك إلا ليعلم أنَّ حُصُول هذه المصالح ليس بالطبع والخاصية بل بحفظ الحكيم العليم.

[آياتُ اللهِ في خَلْقِ الأُذُنين]

وأما أحوال الأُذُنين فاعلم أنه تعالى شقهما وأودعهما مَاء مُرًّا؛ ليكون ذلك معينًا على إدراك السمع؛ وليمنع الهوام عن الدخول في الأذن[١]، ثُمَّ راعى أنواعًا من المصالح:

* **الأول**: إنه حَوَّطَهَا بِصَدفَة[٢] الأذُن ليجتمع[٣] الصوت فترده [١٩/ و] إلى الصِّمَاخ.

* **الثاني**: أنه سبحانه جعل في ثُقْبة الأُذُن انحرافات وانفراجات[٤]، حتى تصِير المَسَافةُ طويْلَة فينتبه ويسعَى في إخراجه عن الأذن.

* **الثالث**: أنه جعل العينين مُقدَّمَتَين والأذنين مَؤَخَّرَتَين يُدْركَان فالعينان يُدركان الأجسام والأعراض وهي أدلّة وجود الصانع تعالى والأذنان يَسْمعان الكَلام، والدلائل العقلية مقدمة على الدلائل السمعية[٥].

* **الرابع**: أنه خلق العينين بالغطاء والأذنين بلا غِطاء؛ لأن متعلق العينين أجسام وأعراض باقية، فَلَوْلا الغطاء لهما لكانا على خطر، ومتعلق الأذنين الصوت ولو كان لهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء، فلا يحصل الانتفاع بالسمع.

* **الخامس**: رَوَى الطبراني عَن كَعْب الأحْبَار قال: أتيتُ عائشةَ فقلتُ: لها [١٩/ ظ] هَلْ سَمعت رَسُول الله ﷺ يَنْعَتُ الإنسان؟ فانظري هل وافق

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٥).

(٢) مجوّفةٍ.

(٣) في المفتاح (٢/ ٥٣٥): لتجمع.

(٤) اعوجاجات.

(٥) هذا غير سديد، بل النقلُ والسمعُ مقدمٌ على العقل والفكر؛ وذلك أن الدين والوحي هاد للعقل وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيده، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فقدّم السّمع على العقلِ.

نعتي نعت رسول الله ﷺ فقالت: انعت، فقال: «عيناه هَادٍ، وأذناه قِمَعٌ، ولسانه تَرْجُمان، ويداه جَناحَان، ورجلاه بريدان، وكَبِدهُ رحمة، ورئته نَفَسٌ، وطحاله ضحكٌ، وكُلْيتهُ مكرٌ، والقلب مَلكٌ، فَإذا طاب طابت جنوده، وإذا فسد فسدت جنوده»، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينعت الإنسان هكذا»(١).

---

(١) موضع باطلٌ: أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٧٧)، وبنحوه: أبو الشيخ في العظمة (١٠٧٣)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢١٥)، والحكيم الترمذي (٢/ ٣).

[آياتُ الله في خَلْقِ الأنْفِ]

وأما الأنف، فإنه سبحانه رفعه من وسط الوجه بأحسن شَكْلٍ، وفتح[1] وأودع فيها وفيه مَنافِعُ:

* **الأولى**: أنه يستدل باستنشاق الروائح على الأغذية والمطاعم المستورة.

* **الثانية**: يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الطيب فيستَغْنِي بالمنخرين عن فتح الفم أبدًا.

* **الثالثة**: أنه جعل [٢٠/و] تجويفه واسعًا؛ لينحصر فيه الهواء ويكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ، فإن الهواء المستنشق وإن كان ينفذ إلى الرئة أكثر فإن شطرا صالحًا ينفذ أيضًا إلى الدماغ، لذلك كان المزكوم يضره استنشاق الهواء.

* **الرابعة**: أن تجويفه الواسع يجلب إلى نفسه هواءً كثيرًا حتى يحصل إلى آلة الشم، فيكون إدراك الشم أسهل، ولذلك كان من بالغ في الشم جذب الهواء بخيشومه أكثر.

* **الخامس**: أنه يعين في تقطيع[2] الحروف.

* **السادس**: أن تكون الفضول المندفعة إلى الرأس ستر ووقاية عن الأبصار.

واعلم أن النَّفَسَ عَظِيمٌ لو انقطع عن الإنسان لحظه واحدة مَات فورًا.

ثم تأمل أن الهواء المستنشق يدخل أولًا من المنخرين وينكسر برده هناك، ثم يصل [٢٠/ظ] إلى الحُلْقُوم فيعتدل مزاجه هناك، ثم يصل إلى الرِّئة ويتصفى فيها ثم يصل إلى القلب فيروح على الحرارة الغريزية وينفذ من

(١) كذا.

(٢) يعني إخراجها وإظهارها.

القلب إلى العروق المتحركة ويبلغ إلى أقاصي أطراف البدن، ثم إذا تَسَخَّن جدًّا وخرج عن حدِّ الانتفاع عما تلك الأقاصي إلى البدن ثم إلى الرئة ثم إلى الحلقوم ثم إلى المنخرين ثم يخرج ويعود مثله، فمجموع هذه الأفعال هي المسمى بالنفس الواحد.

ويُقالُ إنَّ الإنسانَ يتنَفَّسُ في كُلّ يَوْم أربعةً وعشرين ألف نَفَس[1]، فاعرف مقدار النفس الواحد في المنفعة، فإنه لو انقطع لحصل الهلاك، ثم انظر إلى كثرة الأنفاس لتعرف عظم نِعْمة الله عليك ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإنه جعله جَلَّتْ قُدْرَته آلة لتحصيل مصالح الروح؛ لأنه [٢١/و] أودع فيه اللّسان الناطق المعرب كما في الضمير.

---

(١) فسبحان الله.

[القَلْبُ أميرُ الأعْضَاءِ]

واعْلم أنه سبحانه خلق القلب أميرًا للبَدَن ومعدنا للحرارة الغريزية، فإذا استدخل الهواء البارد وصل إلى القلب واعتدلت حرارته فإذا بقي هناك ساعة تسخّن واحترق فاحتاج القلب إلى إخراج ذلك النفس فجعل المُدَبِّرُ الحكيم الفاطر العليم إخراج ذلك النفس مسببًا لحدوث الصوت، ثم جعل في الحنجرة، واللسان والحنك والشفتين مقاطع ومخارج لحروف مختلفة فَحصلت الحروف بهذا الطريق، ثم جعل تلك الحروف عند تأليفها وتركيبها مؤديةً للمعَاني فانظر إلى كمال الحكمة، فإنَّ المقصود الأصليَّ من النفس هو إيصال الشَّم البارد إلى القلب.

وأما إخراج النَّفس فهو جارٍ كَمَجْرَى دفع الفضلة الفاسدة ثم [٢١/ظ] إنه سبحانه صرف هذا إلى رعاية مصلحة أخرى، وهو أنه تعالى جعلها أمارة للحروف والأصوات والكلام، ثم إنه تعالى خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والخشونة والمَلَاسَة[1] حتى اختلفت الأصوات باختلاف هذه الأحوال فكما لا يتشابه صوتان البتَّة لا تتشابه حنجرتان البتة[2].

وكما لا يحصل الامتزاج بين الأشخاص بالقُوّةِ البَاصِرَة يحصل بالقوة السامعة فيحصل في الظلمة هذه التمييز ويحصل للأعمى بهذا الطريق.

---

(١) النعُومة.

(٢) ومن ذلك أن هدى الله الإنسان لما يسمّى بـ«بَصْمة الصَّوت» فجعلوا بعض الخزائن الماليّة تفتحُ بـ«بصمة الصوت»، ويذكرنا هذا بالقصة الخرافية المعروفة بـ«على بابا»!!!.

[آياتُ اللهِ في خَلْقِ الأفواهِ]

فأمّا ما يتعلق بتحصيل مصالح البدن، وهو الأكل، وبذلك[١] أنه تعالى أعمل[٢] في الفم[٣] أسباب الأكل وهو من وجوه:

* **الأول**: أنه جعل في الفم الأسنان وهي اثنان وثلاثون غالبًا[٤]، وهل هي أعصاب صلبة أو عظام؟ خلافٌ، وفيها منافع جليلة:

- **الأولى**: ما ذكر من أنها مقاطع [٢٢/و] الأصوات فتحدث الحروف المختلفة بسببها.

- **الثانية**: أنها تكون سببًا للقطع والكسر والطحن، وانْظُرْ إلَى الحِكْمة في ذلك، وذلك لأن الإنسان أوّل ما يتناول الغذاء يحتاج إلى القطع، وجعل الأسنان المقدمة حادة عريضة الرؤس جارية مجرى السكين وجعل الأنياب مستديرة حادَّة الرؤُس خشنة كالرحى لأجْلِ الطّحْن، ولو قُدر كون الأضراس مقدمة وكون الرباعيات مؤخرة لبطلت المنافع واختلت المصالح[٥] فسبحانه ما أعظم صنعه.

- **الثالثة**: زينة الوجه وذلك؛ لأنه تقدس زين الفم بالأسنان فبيض

---

(١) أي: بتحصيل مصالح البدن.

(٢) خلق وجعَلَ.

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وشَقَ- سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء مبينًا مؤديًا عنه، كما جعل الأذن رسولًا مؤديًا مبلغًا إليه. * مفتاح (٢/ ٥٣٦).

(٤) جمعها الشيخ العلّامة شهاب الدين ابن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله:

وعـدّة الأسنان للإنْسَـان ** كُلُّ ثلاثون يليهـا اثنان
منهـا ثنايا أربـع رباعيـه ** كذا والانياب كمثل تاليه
وأربع ضواحك واثنا عشر ** ضرسًا وأربع نواجذ أخر

(٥) بل لتكسرت الأسنان وتآكلت- فسبحان الخالق.

لونها ورتب صفوفها وجعلها متشابهة متناسبة كأنها الدرُّ المنظوم.

ثُمَّ خَلقَ الشّفتين وحسَّنَ لونهما [٢٢/ ظ] وشَكْلَهُما[١]؛ ليطبقهما ويتمم بها مخارج الحروف، ولما لم يخلق للطير أسْنانًا عوضها المخاليب.

ومن لطيف الحكمة الربانية وباهر القدرة الرحمانية أنه جعل الأذن بلا حجاب ولا باب، وخلق وراء اللسان بابين: أحدهما الأسنان، والثاني الشفتان؛ تنبيهًا على أنه يجب أن يكون استماع الكلام أكثر من الاشتغال به فإنه يجري مجرى الدواء والاشتغال به قد يجري مَجْرى الداء.

* **النوع الثاني**: مما حصل في الفم من أسباب الأكل وذلك أنه تعالى جعل الفم معدنا للرطوبة والعذوبه اللُّعَابيَّة، فالإنسان إذا وضع الطعام في الفم وطحنه بأسنانه امتزج ذلك المطحون باللُّعَابِ الذي في الفم فوصَلت آثار تِلْك الطعوم اللذيذة حالًا كما أنه يصير سببًا لقوة البدن استقبالا.

ثم هنا أنواع من العجائب الإلهية: [٢٣/ و].

- **الأوّل**: أن كل من أراد إدارة الرحَى بسبب انصباب الماء إليه وضع الرحى في موضع أسفل من مجرى الماء حتى إذا انصب الماء من الأعلى يقوى على إدارة الرحى، والباري جَلّتْ قُدْرتهُ أدار الرحى الذي هو الفم الذي مصعد الماء من أسفل المعدة ليعلم الخَلقُ أن ذلك بسبب الحكمة[٢] والقدرة لا بسبب الطبع والخاصيَّة.

- **الثاني**: أن الإنسان قبل أن يضع الطعام في فمه اجتمع من تلك الرطوبات تَعذُّرُ مَضْغ ذلك الطعام وابتلاعه، فانْظُرْ إلى كَمَال هَذِه الحكمةِ

(١) ووضعهما، وهيّأهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له، وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطًا، ولذلك كان أكثر العمل فيها له؛ إذ هو الواسطة. * مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٧).

(٢) وكمال القُدرة، وخصّ الفكَّ الأسفل بالتحريك؛ لأنّ تحريم الأخف أحسن، ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة. * مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٨).

الإلهية، واعلم أنه لا إله إلا هو.

- **الثالث**: أن الإنسان لما احتاج إلى مَضْغ الطَّعام وطحنه جعل له الأضراس حتى يَنْطَحنَ على سَبِيْل التّمامِ والكمال، فسبحان من له الحكمة القاهرة والدلائل الباهرة.

فهذه [٢٣/ظ] نبذة مختصرة في أحوال الناس وشرح أحوال هذه الخواص.

[ظاهِرة الحكمة في خَلْقِ الرأسِ]

ثم هنا أنواع أُخَرُ من الحكمة في الرأس:

* **الأول**: تأمل في رَفْع الحواس وقوة الحفظ والذكر في الرأس؛ وذلك لأنها جعلت في الرأس كالمصباح فوق المَنَارة؛ ليتمكن الإنسان بسبب ارتفاع هذه الحواس من إدراك الأشياء البعيدة، ولذا قال الحُكَماءُ: الرَّأْسُ صَوْمعةُ الحَواس[1].

* **الثاني**: قال بعضهم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما رَأيتُ أعجب من الشطرنج؛ فإنَّ رُقْعته على غاية صغرها تشتمل على أنواع لا نهاية لها من اللعب.

فقال عمر رضي الله عنه: هنا مَا هو أعجب منها رُقْعة الوجه أصْغَر من رقعة الشطرنج بكثير وكل عضو من أعضاء الوجه لا يتغير عن مكانه أبدًا، فإنَّ العينين في موضع واحد وَكَذا [٢٤/و] الفم والأذنين ومع ذلك يحصل فيه التفاوت، فإنَّا لا نَرى شخصين في المشرق والمغرب يتشابهان مِنْ كلِّ الوجوه[2]، فسبحانه ما أعظم شأنه.

واعلم أن التفاوت في الصورة ظاهرٌ قويٌّ فيما بين الآدميين، ثم بعده التفاوت حاصل بين صور الحيوانات الأهلية، لكن التَّفاوت بين الآدميين أكثر.

وأما الحيوانات البريَّة فالتعارف بين صورها قليل جدًا، وسببه ما قدمناه أنه لولا تفاوت صور الناس لم يتميز الزوج عن الأجنبي والسيد عن غيره، ومالك المتاع والدار عن غيره، ويُفْضِي[3] ذلك إلى فساد عظيم

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦، ٧)- ابن حزم.

(٢) ربيع الأبرار للزمخشري (٢/ ٤٩٢).

(٣) يؤدِّي.

فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية التفاوت بين صُور الآدميين وبين الحيوانات الأهلية فقد تتعلّقُ بعض الأغراض بأعيانها [٢٤/ظ] من بعض الوجوه، لكن امتداد الحاجة إلى معرفتها بأعيانها وأشخاصها ليس كالحاجة إلى معرفة الناس بأعيانها، وأظهر الباري تعالى المخالفة بينهما في الصورة، لكن تلك المخالفة أقلّ من المخالفة بين أشخاص الناس، وأما البرية فلا مصلحة تتعلق بمعرفة أعيانها وأشخاصها ولم تظهر المخالفة بين صورها وأشكالها إلا نادرًا فسبحان مَن له في كلِّ شيء حِكمةٌ مَرْعيّةٌ وأسرار خفيةٌ.

* **الثالث**: قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٠]، وإن تعجبت من هذه الحالة فانظر إلى وجهك على صغره فإنه عزَّت قدرته وضع فيه أربعةً من البحار مختلفة الطبائع والطعوم والطبقات[١] فجعل بَحر الأذن مَمْلُوءًا من ماء مر، وبحر العين مملوءًا من ماءٍ مالح، وبحر الفم مملوءًا من ماءٍ عذب [٢٥/و] وبحر الأنف مملوءًا من ماء غضٍّ متغير، وجعل بين كل واحد من هذه البحار حاجزًا هو مانعًا وَأبقى كُلًّا منها على صفته وخاصيته ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

أما مرارة الأذن فلئلا يدخل بعض الحشرات، كما مرارة ملوحة ماء العين فلئلا تطرق العفونة إلى ذلك الشحم، وأمَّا عذوبة ماء الفم فليجد الطعم على غاية اللذاذة وأما غُضُوضة الأنف فليجعله مصبًّا لفضلات الدماغ، فسبحانه ما أعظم حكمته.

* **الرابع**: فيه[٢] كُلُّ مَا خلق الله في العالم الأكبر وذلك؛ لأنه خلق في العالم الأكبر شمسًا وقمرًا ونجومًا وخلق في الأصغر الرَّوح، وهو يضيءُ الجسد وبفقده يظلم، كما أنّ الشمس إذا غربت صار العالم مُظْلمًا.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٥).

(٢) يعني في الإنسان.

والعقل كالقمر، فكما أنّ القمر يستمد النور من [٢٥/ظ] الشمس، فالعقل تزداد قوته تارة وتنقص أُخْرى، وأما بقية السيارة فنظيرها في البدن الحواسّ الخمس ونظير الجبال العظام والبحار العروق وكما أن في البحار حيتان مضطربة، فكذلك ترى في بحر الفم لسانًا مضطربًا، يذكر الحكمة، وترى في المقلة حدقة مضطربة مطالعة للعبرة، وبالجملة فاختصاص كل عضوٍ تضبطه خاصة لابد أن يكون بقدرة العزيز العليم.

* **الخامس**: أنه تعالى جعل أكثر المحاسن في الوجه[1]، فجعل أربعة أشياء من أعضاء الوجه ملونة بالسواد: الأهْدَاب والحاجبين سودا، وجعل أربعةً منها بيضاء فجعل اللحمة من الحدقة مُلوّنة بلون البياض وجعل الأسنان بيضاء، وجعل الجبهة كسطح متخذ من فضة والذقن ككرة متخذة من فضة، ثُمَّ الخَدّين على لون حمرة الورد، ثم [٢٦/و] الشفتين على حمرة الياقوت ثم جعل دائرته على شكل القمر والجبهة نصف دائرة والحاجبين خطين مقوسَيْن وامتداد الأنف كالخط المستقيم، فتأمل في رقعة الوجه وانظر إلى هذه الأصناف المختلفة والأحوال العجيبة وتركيب الحدقة من سواد وبياض وهما لونان في غاية المضادة والمنافرة وجعل النور في وسط الحدقة، ثم السواد مُحيطًا بالنور ثم البياض محيطًا بالسواد، ثم جعل الأجْفان والحاجبين بذلك البياض، فتدبر هذه الأصناع العجيبة والتركيبات البديعة يشهد عقلك وجسمك وروحك وفكرك وذكرك وجميع أجزائك وأبعاضك على جَلَال قُدرة الخالق وكمال حكمته وباهر سلطانه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

* **السادس**: قال [٢٦/ظ] ﷺ: «**اطْلُبُوا الحَوَائج عند حِسَان الوُجُوه**»[2]،

---

(١) وكرّمهُ وعدلهُ كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه (١/ ١٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٧٥٩)، وابن أبي الدنيا في

فجعل حسن الصورة الظاهرة دليلًا على حُسن السريرة في الأعمِّ الأكثر[١].

ومنهم من ذكر فيه وجوهًا أُخَر:

- **الأول**: كأنه عليه الصّلاة والسّلام قالَ: مَنْ حَسَّنَ اللَّه خَلقهُ، وجَبَ عليه أن يجعل شكر هذه النعمة حسن الفعل.

- **الثاني**: أنه أراد بحسن الوجه الدين؛ لأن العبد إنما يتوجه إلى ربه بدينه، والدينُ عند الله الإسلام وإذا رفع محتاج حاجته إلى من حسن دينه لم يرض من دينه أن يرده غير مقضي الحاجة إلا أن يكون عاجزًا عن قضائها.

- **الثالث**: أنه أراد بحسن الوجه التهجد بالليل بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَثُرَت صَلاته باللّيْل حَسُنَ وجْهُهُ بالنّهار**»[٢].

- **الرابع**: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول في سجوده: «**سَجَد وَجْهي للذي شَقَّ سَمْعي وبصري**»[٣]، [٢٧/و] وقد يعبر بالوجه عن الذات[٤] قال تعالى:

= قضاء الحوائج (٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ١١١١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٤١)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٢٩٠)، وتمام في فوائده (١٤٩٠)، وسنده ضعيفٌ؛ لكن له شواهد تخرجه عن الضعف فضلًا عن الوضع. وقد أفرده السيوطيُّ، وابن طولون، ومرعي وغيرهم بالتأليف.

(١) هذا ليس بشرط في ذلك، فكم من وسيم ذميم لئيم، وكم من أسماء «جميله» ذميمه، كما قيل:

جمالُ الوَجْه مَعَ قُبح النفوس ** كقنديل على قبر مجوسي

وقال البُستيُّ:

يَا خَادِمِ الجسم كـم تشقى بخـدمته ** أتطلب الربح فيمـا فيه خسرانُ
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها ** فأنت بالنفسِ لا بالجسْمِ إنسانُ

وقال عنترةُ:

لئن أنْ أسودا فالمسك لوني ** ومـا لسواد جلدي من دماء
ولكن تبعـدُ الفحشاء عني ** كبُعْدِ الأرض عن جوِّ السماء

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه (١/ ١٣٣٣)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٩٩) وسنده ضعيف. وبالغ ابن الجوزي فأورده في الموضوعات (٢/ ٣٤) فأخطأ.

(٣) رواه بنحوه: النسائي (٧١٤)، والترمذي (٥٨٠)، و(٣٤٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣١٣)، وابن خزيمة في صحيحه (٥٦٤)، وإسحاق (١٦٧٩)، والحاكم (١/ ٢٢٠) وسنده صحيح.

(٤) هذا من التأويل العقلي الذي لم يقمْ عليه دليلٌ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والذي عليه أهل السنة =

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**وَجْه دِينكُمُ الصَّلاة**»(١)، ويقال للعربي: يا وَجْهَ العَرب، وللطريق المفضي إلى حُصُول المطلوب: هذا وجه هذا الأرض إذ قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وكل هذه الاستعمالات تدل على أنهم يجعلون الوجه اسْمًا لكل ذلك الشيء تارة وتارة لأشرف أجزائه، وفيه دليل على أن أشرف أجزاء الإنسان الوجه، والأمر كذلك؛ لأنَّ العين البَاصرة للاعتبار فيه(٢)، والأذن السَّامعة للأسرار فيه، واللِّسان الناطق بذكر الملك الجبار فيه، ولذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: سبحان من بَصّر بشحم وأسْمعَ بعظم وأنطق [٢٧/ ظ] بلحم(٣).

ولا شك أن مصالح هذا العالم لا تتميز إلا بهذه الحواس.

وأما مصالح العالم الروحاني والعنايات القدسية فلا تتم إلا بالفكر والذكر وهما لا يتمان إلا بالدماغ واللوح والقلم هناك والأنوار والظلمة هنا فلذلك «كان المصطفى ﷺ لا يأكل الثوم»؛ لأنه يضر بالدماغ(٤)، وكان يُحبُّ الطيب(٥)؛ لأنه يقوي الدماغ وجميع المصالح مبنية على الدماغ.

= والجماعة إثباتُ ما أثبتهُ الله لنفسهِ أولًا، ثم تفويض معناه ثانيًا- والله أعلم.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تلخيص المتشابه في الرسم (١٢٣٦) بلفظ: «إنّ لكل شيء وجهًا، وأعزّ الأشياء وجوهها، وإنّ وجه دينكم الصّلاة، فلا تشينوا وجه نبيكم».

(٢) يعني في الوجه.

(٣) تفسير الرازي (٧/ ٤٤٩)، اللباب (١٠/ ٢٥٠).

(٤) أبدًا- فقد علّل المصطفى ﷺ ترك أكلَهُ للثّوم، بقوله: «إني أُناجي من لا تناجي، وإنّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» رواه البخاري (٧٣٥٩)، والمناوي- رَحِمَهُ اللَّهُ يعني هنا أن كثرته تصنع ذلك؛ لأن طعام رديءَ كما هو نصُّ القرآن ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾.

(٥) يشير إلى حديث: «حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب... الحديث» رواه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٧/ ٣٩٥٠)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٧٨)، وابن عدي في الكامل

فلنكتف بهذا القدر القليل وآثار حكمة الملك الجليل في خَلْقِ الرأْسِ والحَوَاس.

= (٣/ ٣٠٥)، وسنده صحيح. وقال: «ثلَاثٌ لا تردُّ: الوسائدُ، والدُّهْن- العنبر-، واللّبنُ» رواه الترمذي (٥/ ٢٧٩٠)، والبيهقي (٥/ ٦٠٧٩)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٩٩).

النوع الثاني: في آثار حكمته تعالى خلق الإنسان وفيه وجوه:

* **الأول:** تفكَّر في خَلْق الجَنين والرحم، فإنه لا حيلة له في طلبه الغذاء فصرف تعالى من دم أمه ما يكفيه، ثم لا يزال كذلك غذاء له حتى يستحكم بدنه ويقوى جِلْده على مُباشرة الهواء، وحينئذ يهيج الطلق بالأم [٢٨/و] فينفصل عنها فعند ذلك يصرف ذلك الدم إلى ثديها ويحصل له ضَرْبٌ[١] آخرُ من الغذاء أوفق مما كان وهو اللبن، ثم هنا لَطِيفتان:

- **الأولى:** أنه لِمَ غذاه حين كان في بطن أمه بالدم وما وصل إليه هذا من طريق الفم بل من السرة؟ وحكمته أن الفم مَحلّ الذكر والتسبيح والتهليل، فإذا صار هذا الفم محل الذكر والتسبيح فلا ينبغي تلطيخه بأكل الميتة وهي المشيمة، وأكل الحرام.

- **الثانية:** قالوا: فَرّغ خَاطرك عَنْ طلب الرزق، وتيقن أنّه تعالى إذا سَدَّ عليك طريقًا فتح آخر أجْوَد منه[٢].

فانظر إلى الجنين كان يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحد، وهو السُرّة، فلما خرج من البطن وانقطع ذلك الطريق وفتح له طريقين آخرين وهما الثديان، وخرج منهما غذاءٌ لطيفٌ طاهر [٢٨/ظ] نظيف يخرج من بين فَرْثٍ ودَم[٣]؛ لتعلم أنه مهما انسد طريق انفتح طرقٌ أربعة: طعامان: وهُمَا النبات والحيوان، وشرابان: وهُمَا المياه والألبان، ثم إذا مات انسدت هذه الطرق الأربعة، وفتح له تعالى برحمته وكرمه أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء بمنه وكرمه.

* **الوجه الثاني:** من بيان الحكمة أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم،

---

(١) نوعٌ.

(٢) الفوائد لابن القيم (٥٧).

(٣) الكَرِش.

وذلكَ لأنه تعالى خلق المخلوقات في عالم الأجسام على أربعة أقسام: قائم كالأشجار، وراكع كالبهائم وساجد كالحيتان والحيات، وجَالسٌ كالجبال وخلق الآدمي بحيث يكون تارة قائمًا وتارة راكعًا وتارة ساجدًا يذكر الله على جميع هذه الحالات كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، ثم انضم إلى هذا الذكر الفكر فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] [٢٩/و]، فما أعظم هذه الحالة وأجلّ هذه الحكمة ويقرر ذلك على وجْهٍ آخر فيقال: النبات رُؤُوسه في عُمْق الأرض وأرجله صاعدة في السماء، فهو منكس، والإنسان بالعكس، والحَيوانُ متوسط بين هاتين الحالتين لا منكوس كالنبات ولا قائم كالإنسان، وسببه عند الطبائعيين[1] أن النبات جسماني فكانت رُؤوسه نحو الأرض، والإنسان رُوحانيٌ مَحْضٌ بالنسبة إلى مكان الأرض فكانت رأسه تلي عالم الروحانيات، وهو عالم السموات ومساكن الملائكة، وأما الحيوانُ فمتوسط لكن هذا يوهم أن سبب هذه الأحوال الطبع والخاصية.

وقد أبطل تعالى هذا الوهم وأزال هذا الخيال فقال: أيها الإنسان ما دام رأسك منتصبًا في مقام التكبير فأنت في متابعة إبليس حيث أبى واستكبر وكان من الكافرين، فإذا وضعت [٢٩/ظ] رأسك على الأرض فهناك تقرب من الحضرة الصمدية كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]؛ لتعلم أن هذا ليس بالطبع بل بفضل الله وبرحمته.

* **الوجه الثالث**: أن بدنك يشبه الدار الكاملة التي بُنِيَتْ وأكملت بيوتها وخزائنها وفتحت أبوابها وأعدّ فيها كلّ ما يحتاجه صاحب المنزل، فالرأس كالغرفة في أعلى الدار، والنقب التي في الرأس كالدولاب في كل

---

(١) الفيزيائيين.

غرف الدار، ووسط دماغه كالإيْوَان[1]، والفم كباب الدار، والأنف كالطاق، والشفتان كمصراعي الباب، واللسان كالبواب، والحاجب والظهر كالجدار القوي، والوجه كصدر الدار، والرئة التي هي حاوية للنفس البارد كالبيت الصيفي وجريان النفس فيها كالهواء الذي يجري في البيت الصيفي، والقلب مع حرارته الغريزية كالبيت الشتوي والكبد [٣٠/و] كبيت الشراب والعروق التي يجري فيها الدم، والغذاء كمجاري الدار، والطِّحَال بما فيه من الخوابي كالثقب التي تصب فيها الدوديات، والمثانة بما فيها من البول كالمواضع التي تجري فيها القاذورات من الدار، والرجلان كالمركوب المطيع، والعظام التي بنى الجسد عليها كالأخشاب التي عليها بناء الدار، واللحم على العظام كالطين، والعصب الذي يربط بعض العظام ببعض كالرَّسَن[2] الذي يشد به بعض الأشياء ببعض، والتجويفات في جوف العظام كالصناديق في الدار، والمخّ فيها كالجواهر والأمتعة المخزونة في الصناديق، فسبحان من هَيَّأ بيوت هذه الدار بحكمته الباهرة.

ثم إن الروح في هذه الدارة كالملك المتصرف فيبصر بالعينين ويسمع بالأذنين، ويشم بالمنخرين، ويذوق باللسان [٣٠/ظ] ويقطع بالأسنان ويمس باليدين ويعمل الصّنائع بالأصابع ويمشي بالرجلين ويبرك بالركبتين ويقعد على الإليتين وينام على الجنبين، ويستند بالظهر ويحمل الأثقال على المنكبين، ويتخيل بمقدم الدماغ ويتفكر بوسطه ويتذكر بمؤخره ويُصَوِّتُ بحنجرته، ويستنشق الهواء بخيشومه، ويمضغ بالأسنان، ويبلع بالمريء.

والمقصود من ذلك كله أن يكون في حضرة الربوبية مشتغلًا بالعبودية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) كالشُّرفة، أو الساحة، أو بيت غير مسدود الفُرجة له سنادٌ.

(٢) الحبل الذي تُقادُ به النَّاقة.

ثم إنه تعالى فَوَّضَ تدبير هذه المملكة إلى ثلاثة من الرؤساء:

- **أولها**: الشهوة ومسكنها في الكبد وجريانها مع الدم في العروق الساكنة، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**إنَّ الشَّيْطان يَجْري من ابن آدَم مَجْرَى الدَّم**»[(١)]، وذلك أن القوة [٣١/و] الشهوانية لا تسري إلا من الكبد مع الدم والعروق.

- **الثانية**: القوة الغضبيَّة، ومسكنها القلب وهي تجري في العروق المتحركة إلى جميع أطراف البدن.

- **الثالثة**: القوة النفسانية المدبرة، ومَسْكنها الدِّماغُ، وهي تجري في الأعصاب إلى جميع أطراف البدن، وهم الرؤساء الثلاثة ليسوا أشياء متباينة مستقلة بأنفسها بل هي الفروع المتفرعة من أغصان واحدة كالأغصان الثلاثة من شجرة واحدة، وكالمَنبع الذي ينشقُّ منه ثلاثة أنهار، وكالأب الذي يتولد منه ثلاثة أولاد، وكرجل يعمل أعمالًا ثلاثة فيُسمَّى ثلاثة أسماء: الحَدَّاد، والصَّائغ، والبَنَّاء، فهؤلاء كملوك الأطراف الذين ولَّاهم الملك الأعظم.

فأفعال الشهوة تشبه أفعال النساء والصبيان والحمقى إذا لم يؤدبهم آباؤهم وأزواجهم، [٣١/ظ] وأفعال العصب تشبه أفعال الغَيَّارين[(٢)] والقتالين إذا لم يؤدبهم الملوك وأفعال القوة المدبرة تشبه أفعال الفقهاء والحكماء وأهل الخير والصلاح.

* **الوجه الرابع**: كأنه يقولُ: عبدي أردت أخرجك إلى الدنيا وأعرضك على والديك وعلى أهل الدنيا، وزينتك كما تزين الوالدة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٣٢٨١)، ومسلم (٤/ ٢٥)، وأبو داود (٢/ ٢٤٧٠)، وابن ماجة (١/ ١٧٧٩).

(٢) جمعُ غيّار أو عيّار- وهم قطاع الطرُق والشطّار، ويسمون في زماننا: البلطجيّة.

المشفقة ولدها حين تريد عرضه على الناس فجعلت جبهتك كالسطح المتخذ من فضة ليكون محل السجود وأظهرت في رقعة وجهك أنواع النقوش العجيبة وأعطيتك الحَاجب المُتَقوِّس، والعين المُلوَّن، والخدَّ المُورَّد وجعلت وجهك كالقمر ثم جعلت العينين للاهتداء والأذنين للإصغاء، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم، والكبد للإتمام، والعروق كالأنهار والمنافذ لدفع الفضول واليدين للأعمال والرجلين للمشي [٣٢/و] كل ذلك ليكون عند خروجك للدنيا مع أنها سجن ودار محنة ومحل ممر لا مسكن ومقر عارفًا كيف يكون عنايتك بي.

* **الوجه الخامس**: أنه تعالى خلق اليدين للطلب والرجلين للهرب، ثم جعل اليد مركبة من أربعة مفاصل محسوسة: العضو والساعد والكفّ والأصابع، فإن أراد الإنسان جعل هذه العظام الأربعة بمنزلة عظم واحدٍ أمْكنه، فيمد اليد كالدائرة المحيطة بذلك الشيء لأجل حصول الفاصلة في اليد.

ثم جعل الأصابع خمسة وقَسَّم كل إصبع بثلاث سُلاميَّات أعظمها السوافل وأدقها الأواخر وهي الأنامل لتخف ويحسن ضبطها ولو كانت أكثر من ثلاث لوهيت أو أقل عسرت حركتها وتقعرت من داخل لتتسع اليد واختلفت في الطول لتنتظم وامتلأت باللحم [٣٢/ظ] لئلَّا تتأذَّى بقبض الأشياء الصلبة وخلت من خارج لتكون خفيفة ووضع الأربعة في جانب والإبهام في آخر، وجعله عظمين فقط؛ لأنه حصل للقوة والمقاومة، وبهذا الترتيب صلحت اليد للأعمال الكثيرة فإن بسطها كانت كالطبق يضع عليها ما شاء أو جمعها كانت آلة للضّرب أو ضَمَّها ضَمًّا غير تام كانت مفرقة له

أو ضم إحداهما إلى الأُخرى صار المجموع كَقدَح كَبير[١].

ثُمَّ خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل، وعمادًا لها من ورائها حتى يمكنه أن يلتقط بالأصابع الأشياء الدقيقة وأن يحك بدنه عند الحاجة.

ثم تأمل في هذه الحكم فإن الظفر الذي هو أخسُّ الأعضاء، لو لم يكن للإنسان لصار أعجز الخلق عند الحاجة إلى الحك، فإن أحدًا لا يقوم مقامه في بدنه، وما حك جَسَدك مثلُ ظُفُرك[٢]، [٣٣/و] ثم من عجائب هذا المقام أنه إذا احتاج إلى مسّ موضع مُعين من بدنه لا يخطىء فيه البتة ولو في وقت النوم والغفلة ولو استعان بغيره لم يعسر على مَحل المحكّ.

(١) قال ابن القيم: فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقًا واحدًا كالصفيحة، فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته، ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك. * مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٣٨).

(٢) يُعزَى للإمام الشافعي:

مَا حَكَّ جلْدَكَ مثْل ظُفرك ** فَتوَلّ أنْتَ جميع أمرك.

[مَنافعُ خلق اليد]

ولنذكر منافع اليد من وجه آخر فنقول: مصالح الإنسان تنقسم قسمين: رُوْحانيَّة، وجُسْمانيَّة.

* **أما الروحانية**: فلليد فيها أعظم أنواع المعرفة؛ لأنَّ عقل الإنسان الواحد لا يستقلُّ باستنباط جميع أنواع العلوم المحتاج إليها، بل لابدَّ من استعانة بعض العقول ببعض وذلك لا يتم إلا بأن يكتب المتقدم ما حَصَّلهُ من العلوم والكتابة لا تكون إلا باليد.

* **وأما المصالح الجسمانية**: فهي جَلْب المنافع ودفع المضارّ، أما جلبها فلليد فيه أنواع المعرفة؛ لأنّ الإنسان يتخذُ بيده آلات يصيدُ بها في البحر والبر الهوام [٣٣/ظ] والحشرات، ويعمل السفن ويقطع بها في البحار المسافة البعيدة، ويتخذ آلات تخرج منه أصوات لذيذة نافعةٌ للبدن والرُّوح ويبني بيده المساكن الحسنة وينسج الثيابَ العجيبة ويتخذ الأطعمة اللذيذة وكل ذلك لا يتهيأ إلا باليدين وتارة ينسج الثياب المنقوشة بعجائب النقوش وفنون الألوان والأصباغ، فيصير أحسن من لون الطاووس وتارة يجعل من الذوات ما يشبه ذوات الأطراق.

وأما دفع الضرر فنوعان تارة بالجهاد، وأُخْرى بالتحرُّز من القرون كالرُّمْح وما هو أقْطعُ كالسَّيْف، وما هو أبلغ من المخَاليب كالخنجر، فإذا تأمَّلْتَ علمت أن اليد مع الرمح قَرْنٌ، ومع السيف ناب، ومع الإبْرة حُمَةٌ[1]، ومع الخنجر مِخْلَب.

وأما التحرُّز [٣٤/و] فإمَّا أن يكون بالهرب أو بالتَّحصُّن، أما الهرب فسيأتي، وأما التحصن فإنه يعمل بيديه ما هو أفضل مما حصلت الحيوانات

---

(١) شوكة العقرب- والعياذ بالله تعالى.

من الجلود الغليظة والأصداف كالترس والدرع، وأنواع السلاح وتتخذ بهما القلاع والحصون أحسن مما لجميع الحيوان، وكلُّ ذلك إنما يكون باليدين ثم إنهما يخدمان كل البدن خدمة عظيمة فتدفع عنه الآفات والقاذورات ويجران إليه المنافع ولو غاصت العقول أدْوارًا وأعْصارًا وآثارًا في حكمة الله تعالى في خلق اليدين لاعترفت بعد التوغل العام بالعجز والقصور.

[مَنافعُ خلق الرِّجلين]

وأما الرجلين فمنافعهما معروفة وقد أوجد الحكيم- تَقدّسَ- عَظْمًا رقيقًا لطيفًا استدار من العُصْعُص[1] حتى قابل الكُلَى في السامتة يسمى عظم الخاصرة وخلق داخله عَظْمًا أصلب منه [٣٤/ظ] قدمه إلى الخاصرة بين مقعر الخارج يسمى عَظْم العَانة قَدْ وَصَل الوَركَيْن التصاقًا وفي عظم الخاصرة نقرة مهندمة قد دخل فيها عظم الفخذ وهو مقابل العَضُد وجعله أعظم عظام البدن بجملة ما فوقه، وجعله منجذبًا إلى الظاهر مع ميل إلى الدّاخل والمتحرك ورأسه الأخير يُسمّى ركبة، والسَّاقَان لهما كالزندين، وجعل الإبهام في الرجل على سَمْت[2] الباقي ليتمكن عليه في الصعود ونحوه والاستقصاء في بيان حكمة الله تعالى في خلق الإنسان مما لا يمكن حصره ونعِمَّا.

قال الغزاليُّ[3]: العجبُ كُلُّ العجب ممَّن يرى صُوْرة إنسان على حائط فيستحسنه ويصرف جميع همَّته إلى النقاش كيف نقشه وكيف قدر عليه؟ مع أنه يعلم أن ذلك النقش إنما تَمَّ وكمل بالصُّنع والقلم والحائط واليدين والقدرة والعلم [٣٥/و] والإرادة وليس شيء من ذلك من فعل النقاش ولا من خلقه، بل كله من خلق الله تعالى وإنما غاية النقاش الجمعُ بين الصنع وبين الحائط على ترتيب مخصوص وإذا كان هذا القدر من العمل سببًا للإقرار لذلك النّقّاش بالحكمة فلأن يستدل بتركيب ظهور الإنسان وتخليقه على جلال علم الخالق ونهاية حكمته وقدرته أو لى.

---

(١) أصل عظام العمود الفقري.

(٢) هيئة.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٤٨٠).

* **الوَجْهُ السادس**: انظر مع كمال قدرته إلى تمام حكمته؛ لأن الجنين حين كان في الرحم يكون بعض أعضائه مَضْمومًا إلى بعضٍ، ويكون مجموعًا كالكرة المَوْضوعة في كيس الرحم، وذلك لأنه قد ضَمَّ فخذيه إلى صدره ووضع راحتيه ورأسه إلى ركبتيه وعيناه على ظهر كفيه، وأنفه بين الركبتين جالسًا على رجليه معتمدًا على عقبيه، كالمفكر المغموم المهموم [٣٥/ظ] المنتظر لورود الأمر عليه، ووجهه إلى ناحية القلب، وهذه الجلسة أَوْفق للانقلاب، ثم إذا كبر وضاق عليه الموضع يُلْهمه الله إلى كيفية الخروج، فينكس رأسه ويعمل على الانقلاب، ثم في ذلك الوقت ينفتح الرحم انفتاحًا لا يمكن مثله ولابد من انفصال بعض المفاصل العظيمة بمدد وعناية من الله في ذلك الوقت تعجز عن معرفته وكيفيته العقول البشرية.

[ظاهِرةُ الهدَايَة]

ثم هنا أسرارٌ عجيبةٌ:

* **فالأول**: أن الجنين حين كان في البطن أَمَدَّهُ الله بالإلْهَام حتى عرف أن مصلحته عند الخروج[1] لأن ينقلب وينعكس ثم بعد انفصاله إلى الدنيا لا يهتدي إلى شيء من مصالحه؛ لأن حال كونه في البطن ليس هناك من يعينه على شيء من مصالحه فلما كمل عجزه هناك هُدي إلى رعاية مصلحته، ولما خرج فههنا من [٣٦/و] يعينه على رعاية مصلحته، فانقضت تلك الهداية، وفيه دلالة على أنّ الإنسان كلما كثر عجزهُ وقصوره كانت عناية الله أتم، وعجزُ الخلق في موقف القيامة أشد والحمل فنرجوا من أن تكون رعايته مباني[2] ذلك الوقت أتَمَّ.

* **الثاني**: في البيضة إذا انفصلت عن الدجاجة خَرجَ الفَرْخُ عنها وغذي والتقط الحب ما ينفعه واحترز عمَّا يضُرُّه وفرق بين أمه المنتفع بها والهرة الطالبة لأكله.

أمَّا الإنسان فحال انفصاله لا يميز بين المنافع والمضار والصديق والعدو، فهو في ذلك الوقت أكثر جهالةً من الفَرْخ[3]، ويكون الفرخ أكثر وأذكى تمييزًا من الإنسان عند المنتهى والكمال، لكنه تعالى قلب هذه القضية فجعل المميز في أول الأمر قليل التمييز عند الكمال والغاية وجعل [٣٦/ظ] الإنسان الذي هو أقلُّ الحيوان تمييزًا أو أكثر معرفة وهداية وعقلًا

---

(١) هذا فيه نظرٌ؛ لأن أوضاع الأجنّة تختلف، فبعض الأجنّة يأتي برأسه إلى ناحية الفرج، وبعضهم يأتي بقدميه.. إلخ.

(٢) كذا.

(٣) لا يصحُّ ذلك؛ لأنّ الله تعالى سخّر الفرخ للإنسان ولا عكس، فلو كانت أطوار الفرخ كالإنسان لفات الانتفاعُ به وبطل تسخيره.

آخِرًا ليعلم أنَّ كل ذلك بحسب القدرة والحكمة لا بحسب الطبع والخاصّة.

* **الثالث**: أن الطِّفْل بعد خُرُوجه من البطن لمَّا احتاج من الغذاء فانظر كيف دَبَّر له في حَلب اللبن اللطيف ثم خلق الثَّدْيين وجمع فيهما اللبن وأنبتَ عَلى رَأْس الثدي حَلمتين على قدر ما يطيق فمه، ثم جعل في تلك الحلمة ثُقبًا ضيقة جدًا حتى لا يخرج اللبن منها إلا بعد المصّ، فإنَّ الطِّفْل لا يقدر على الابتلاع لو خرج من الثدي لبن كثير بالمص، ثم هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شِدَّة الجوع على الريق ثم أَخَّر خلق الإنسان إلى تمام الحولين؛ لأنه فيهما لا يتغذى إلا باللبن وهو مُسْتَغْنٍ عن السِّنّ، فإذا كبر نَبَتتْ أَسْنانهُ عند حدوث الحاجة فتبارك [٣٧/ و] الله أرْحَمُ الراحمين(١).

(١) كذا.

❁ فصل ❁

في حال الإنسان من ولادته إلى موته

ذَهبَ العقلاءُ[1] إلى أنّ القلب أشرفُ أعضاء البدن، وأنه الرّئيس المطلق لسائر الأعضاء وهو المخاطب والمعاتب والمعاقب والمطيع والعاصي، وهو محلُّ التّمييز والاعتبار، وجميع الأعضاء مسخَّرةٌ له، والدليل عليه المنقول والمعقول.

* **أما المنقول: فمن وُجُوه:**

- **الأول:** قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، بالحق: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، دَلَّ صريحُ الآيتين على أن الوحي والتنزيل كان على القلب، فوجب أن يكون المكلف والمخاطب.

- **الثاني:** ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، دَلَّ صَريحُ الآية على أن الذكرى والفكر إنما يحصل بالقلب.

والقُوى العقلية قسمان: منها ما يكون في غاية الكمال والصفاء [٣٧/ ظ] ويكون مخالفًا لجميع العقول بالكمية والكيفية.

أما الكمية: فلأن حصول المُقدّمات البديهيَّة والحِسّيه والتجريبيَّة لها أكثر.

وأما الكيفية: فلأن ترك المقدمات على وجه ينساق إلى النتائج الحقيقة ومثل هذه العقول عقلية يستغني في معرفة حقائق الأشياء من التعلم والاستعانة بالغير؛ لأن مثل هذا في غاية الندرة.

---

(١) بل نطق به الشرع: «ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

* **والقسم الثاني**: وهو ما لا يكون كذلك فيحتاج إلى اكتساب العُلُوم النظرية والاستعانة بالغير والتمسك بالقَانُون[١] الصِّناعيّ الذي يَعصمه من الخلل أو الزلل.

إذا عرفتَ هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، إشارة إلى القلب الأول وذكر القلب منكرًا؛ ليدل على كمال العزَّة بدليل: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، أي حياة عظيمة طويلة المدة، وكذا هنا لمن كان له قلب كامل في قُوّة [٣٨/ و] الإدراك عظيم الدرجة في الاستعداد لمعرفة الحقائق وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، إشارة إلى الثاني الذي يفتقر إلى الكشف والاستعانة بالغير وهذا من الأسرار الذي بُنيَ عليها أصل العلم المنطقي[٢]، وقَد لَاحَ توفيق الله في هذه الآية فلما كان الأول في غاية الندرة والغالب هو الثاني أمر الكل بالطلب والاكتساب في أكثر الآيات.

وقال صاحبُ المنطق: إنّ القسم الأول وإن كان غَنيًّا عن الاستعانة بالنطق لكنه نادر والغلبة للثّاني فكلهم يحتاجون إلى المَنطق، فانظر إلى هذه الأسرار العميقة كيف تجدها مندرجة في ألفاظ القرآن.

* **الثالث**: الآياتُ الدَّالةُ على استحقاق الجزاء ليس إلَّا على ما في القلب من المساعي، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: [٣٨/ ظ] ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وبيَّن في آية أخرى أنَّ التقوى في القلب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]،

---

(١) القانُون: أمرٌ كليٌّ ينطبق على جميع جزئياته التي تتعرف أحكامها منه. * الكليات (٤/ ٦٠)، التوقيف (٥٧٠).

(٢) أبدًا، فالعلم المنطقيُّ فيه كثير من المخالفات والمغالطات فلا يصح أن يحتكم إليه قبل الشرع، قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠].

* **الرابع**: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ [الملك: ١٠] الآية: والعقل في القلب[1] ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، والسمع والبصر لا فائدة فيهما إلا ما يؤديانه إلى القلب فكان السُّؤَالُ عنهما في الحقيقة سؤالًا عنه، ونظيره: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ لا يكون إلا بما تضمره القلوب عند التحديق والنظر.

* **الخامس**: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فحصر هذه الآية بإلزام الحجة استدعاء للشكر عليها، وقد قلنا: إنه لا طائل في السمع والبصر إلا ما يلقيانه إلى القلب؛ ليكون هو القاضي فيه، والحاكم عليه.

* **السادس**: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، جعل هذه الثلاثة تَمَام ما ألزمهم [٣٩/و] به من حجته، والمقصود من ذلك: هو الفؤَاد القاضي[2] فيما يؤديه إلى السمع والبصر.

* **السابع**: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، فجعل العَذاب لَازمًا لهذه الثَّلاثةِ، ونظيره: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية.

وجْهُ الاستدلال: أنَّ القَصْدَ بيانُ أنه لا علم لهم أصلًا، ولو ثبت العلم في غير القلب كثباته فيه لم يتم الغرض[3].

* **الثامن**: أنَّه تعالى ذكر الإيمان في القلب وأضافه إليه قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وأما المعقول فهذه المسْأَلة مما عظم اختلاف الفلاسفة فيها، فزعم

---

(١) انظر: رسالة في بيان الفرق بين العقل والقلب للحكيم الترمذي (٥).

(٢) الحاكم.

(٣) في المخطوط: الفرض.

أرسطو أنَّ النفس واحدة لها أفعال ثلاثة: الفعل، والغضب، والشهوة، فهذه صفات ثلاثة لجوهر واحد، وهو للنفس، والمتعلق الأول النفس، والقلب ومنه تتغذى القوة النفسانية إلى جميع الأعضاء.

وزعم بُقْرَاط [٣٩/ظ] وأفلاطون وجالينوس أنها نفوس ثلاثة كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولكل منها عضو مستقل ومعدن النفس المفكرة الدماغ والغضبيَّة القلب والشَّهويَّة الكبد، والكتاب والسنة يُعضِّدان قول أرسطو، وإثبات صحة قوله يتوقَّفُ على مقدمتين:

* **أحدهما**: بيان أن النفس واحدة.

* **الثاني**: أن العضو الرائس[1] مطلقًا واحد وهو القلب الأول فنحن هنا بين مقدمتين: إمّا أن يدَّعى البديهية أو الاستدلال.

أما دعوى البديهية فهو أن المراد من النفس ما إليه يشير واحد إلى ذاته الخاصة بقوله: إن فات المشار إليه واحد غير متعدد.

فإن قيل: لمَ لا يمكن أن يكون الواحد مركبًا من ثلاثة أشياء: القوة المفكرة، والغضبيَة، والشهوانية؟.

قلنا: باطل؛ لأنَّ بديهة العقل حاكمة بأني اشتهيْت وتفكرت إذا قلت: أنا اشتهيتُ، أنا تفكرتُ، أنا [٤٠/و] غَضبتُ، فمحلُّ هذه القضايا الثلاثة شيءٌ واحدٌ، والتعدد واحد في المحمولات، فإذا كان هذا معلومًا بالضرورة عُلم أنَّ الجوهر واحدٌ بالذات مُتعدِّدٌ بالصِّفات.

وأما طريق الاستدلال فيدلُّ على صحَّة قوله لوجوه:

* **الأول**: أن الغضب حَالةٌ نفسانيَّةٌ تحبس عند طلب الملائم ورفع المنافر، وطلبُ الملائم مشروط بالشعور فيكون الشيء مُلائمًا ومنافرًا للقوة الغضبية التي هي قوة دافعة له اختيارًا والإدراك والغضب صِفَتان من

---

(١) القيّم والمتصَدّر.

صفات شيءٍ واحدٍ، وكذا القول في الشهوة وثبت بهذا البرهان أنّ التفكر والغضب والشهوة صفات لذات واحدة.

* **الثاني**: إذا فرضنا مَبدئين، كل منهما مستقل بفعله الخاص امتنع أن يكون اشتغال أحدهما به مانعًا للآخر من الاشتغال بالآخر فلو كانت القوة المفكرة [٤٠/ظ] مبدأً مستقِلًّا، وكذا الشهوانية والغضَبيَّة كان اشتغال القوة بفعلها مَانعًا للقُوة الشَّهوانية من الاشتغال بالشهوة يمنع من الاشتغال بالغضب فعلم أن هذه الثلاثة ليست مبادئ مستقلة بل صفات لجوهر واحد.

* **الثالث**: إذا أدْرَكنا شَيئًا وقد يكون الإدراكُ سَببًا للحُصُول وقد يكون سببًا للغضب فلو كان الجوهر المدرك مُغَايرًا للجوهر الذي يغضب والجوهر الذي يشتهي فحينما أدرك صاحب الإدارك لم يكن من هذا الإدراك عند صاحب الشهوة والغضب وجب أن يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب فحَيْثُ حَصلَ هذا التَّرْتيب عُلِمَ أنَّ صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة وهو صاحب الغضب.

* **المقدمةُ الثانية**: قَدْ عُلم ممَّا مَرَّ أن [٤١/و] العضو الرائس مطلقًا هو القلب، فنقولُ: قد بينا أن المنيَّ إذا وقع في الرّحم صار كالكرة وتجتمع الأجزاء المائية والأرضية وتحيطُ بتلك الأجزاء؛ ليكون صَوْنًا لها ومَانِعًا من التحلل، وذلك الموضع الذي اجتمعت فيه الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي إذا تمت خلقته كان قلبها فبذلك عُرف أن أول عضو يكون هو القلب وإذا كانت النفس واحدة كان تعلقها الأول بالقلب وبواسطته يَسْري الأثرُ إلى سائر الأعضاء، فثبت أنَّ العضو الرَّائس مُطْلقًا هو القلب، هذا هو المعول عليه في الباب وهو المطلوب.

وهنا وجوه إقْناعيَّة:

* **الأول**: نجد الفهم والإدراك والعلم في ناحية القلب، فعلم أن القلب

محل العلم.

* **الثاني**: النفس هي الحسَّاسةُ[1] المتحركةُ بالإرادة فيكون القلب منبعًا للحِسّ والحركة الإرادية.

* **ثالث**: الحس والحركة الإرادية [٤١/ظ] إنما يحصلان بالحرارة، أما البرودةُ فعائقةٌ عنهما، والقلب منبعُ الحرارة والدِّماغ مَنبع البرودة فجعل القلب منبع الحسّ والحركة الإرادية أولى من جعل الدماغ مبدأً لها.

* **الرابع**: كل أحد إذا قال: أنا، يشير بيده إلى صدره وإذا قال: أنا أفعل، وأنا أقول يصنع كذا، وهذا يدل على أن المشار إليه بقوله: أنا موجود في القلب لا الدماغ.

* **الخامس**: أظهر آثار النفس الناطقة[2] النطق، فوجب أن يكونَ معدن النفس الناطقة الذي ينبعث من النطق، والنطق والكلام إنما ينبعث من القلب؛ لأنَّ الصوت إنما يتولد من إخراج النفس وإدخاله، وإخراجه فعل القلب؛ لأن المقصود من إدخال النفس ترويج مرارة القلب والمقصود من إخراجه دفع الفَضْلة المُحْترقة، وإذا كان إدخاله وإخراجه [٤٢/و] مقصودًا للقلب بالذات، كان استناد هذا العقل إليه أولى من استناده إلى الدماغ الذي لا يمازجُهُ، فثبتَ أن إخراج النفس فعل القلب والصوت يحدث من إخراج النفس فثبت أن فاعل الصوت هو القلب.

(١) التعريفات للجرجاني (٢٦٢)، التوقيف (٧٠٥).

(٢) للفلاسفة كلامٌ مخالفٌ لهدي الإسلام في تعريف النفس الناطقة فليحذر.

❁ فصل ❁

في شرح أحوال القلب

اعلم أنه يدلُّ على شرف القلب وجوهٌ:

* **الأول:** أن المقصود من خلق الإنسان استغراقه في مَعْرِفَةِ الله وخدمته[1] لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فبين أن المقصود من الخلق هو العبادة والمقصود منها الإخلاص، والمقصود منه المعرفة فثبتَ أنّ لُبَّ اللبّ ومقصُودَ المقصودِ إنّما هو المعرفة، ومحل المعرفة هو القلب، فظهر أنّ المقصودَ من خلق العالم هو القلب.

* **الثاني:** [٤٢/ظ] ثبت أن أول ما خلق الله جوهرة[2] ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً ثم سَلّط الحرارة عليها فارتفع زبدٌ وعلا دُخان، وجعل تلك الجوهرة شيئًا واحدًا أرسله من العدم إلى الوجود، وكلُّ واحدٍ من المخلوقات سُلالة من المعدومات، ثم سلَّ من ذلك المخلوق الأرض وذلك هو السلالة.

* **الثالثة:** ثم سَلَّ منَ الأرض قَبْضَته و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وهذا هو السلالة.

* **الرابعة:** ثمَّ جعل القلب سليل المعرفة، فظهرت تلك الحكمة المطلوبة في رابع السلالات، وبذلك ظهر أن جسم الإنسان ينقسم إلى الهيكل الظاهر، وإلى المضغة الباطنة، وهي القلب الذي هو سرير المعرفة

---

(١) بل عبادة الله؛ ليقي نفسه عن العذاب والنار، فالله غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعهُ طاعةُ طائع، ولا تضرُّهُ معصيةُ عاصٍ.

(٢) هذا باطلٌ، بل ثبت وصحّ عن رسول الله ﷺ أنّ أوّل ما خلق الله القلمُ- وانظر: محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر لعلي دده البوسني (١/ ٨٧/ بتحقيقي).

والقلب تبع للهيكل في الصورة والهيكل الظاهر مع القلب في المعنى.

ولَمَّا كَانَ [٤٣/و] الهَيْكَلُ الظّاهرُ تبعًا للمضغة الباطنة علم أنه يخلق العبد لأجل هذا الظاهر، بل ليطلب من الظاهر باطنًا ومن الشاهد غائبًا ومن المحسوس معقولًا.

فظهر مما قلنا أن المقصود الأصليّ هو القلب، وحصنه هو البدن وحصن البدن الأرض، وحصن الأرض السموات وحصن السموات عالم الممكنات والكُل مسخر في قبضه قدرته ونفاذ مشيئته[١].

إذا علم ذلك، فنقولُ: القلب له في القرآن اسمان: أحدهما: القلب، والثاني: الفؤاد[٢]، فيحتمل أن الفؤاد اسم لجميع هذا المضغة كنسبة النقطة الناظرة إلى العين، وتلك النقطة هي المسماة بِسُوَيْدَاء القلب، وهذه السُّويداء بالنسبة إلى العين الباطنة كسواد العين الظاهرة فالإبصار الظاهر يحصل بالسواد، والبصيرة بالسويداء.

وظهر بهذا ترتيب عجيب؛ لأنّ الظاهر هو العينُ، [٤٣/ظ] ثم النقطة الظاهرة ثم النور الناظر الموجود في النقطة الناظرة.

أما الباطنُ فالفؤادُ اسم لتمام هذه النقطة ثم النقطة الناظرة وهي سُويداء القلب، ثم نور البصيرة.

إذا علم هذا، فنقول الإبصار في عالم الظاهر يتوقف على شروط وعلل هي بعينها معتبرة في إدراك البصيرة، فالأوَّلُ للإبصار أن لا يكون المبصر في غاية الجلاء ولا في غاية الحق.

أمَّا غاية الجلاء، فكالشمس فإن العين تتحير فيها فلا يقدر على الإبصار فيها بالتمام، وأما الذي في غاية الخفاء والصغر أما التي في غاية

---

(١) هذه قضايا مركبة مسلسلة غير مسلمة بديهةً.

(٢) وله اسمٌ ثالثٌ وهو اللُّبُّ، كما عليه بعضُ العلماء. وقال الأكثرون: بل اللبُّ: العقلُ فقط.

الجلاء والإشراق فهي جَلال الله تعالى وكبرياؤهُ.

ومنه عظمة الأرواح العالية المقدسة، فنور سُويداء القلب يجري في هذه الحضرة فلا يجعل إليها، وإليه الإشارةُ بقول مَن قال: سبحان من احتجب عن العقل بشدة ظهوره واختفى [٤٤/و] بكمال نوره[١].

وأما الذي في غاية الخفاء فكتفاصيل الأحوال وهو قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، فإن النطفة حينما تَقعُ في الرحم إلى حين ينفصل الجنين لها في كل لمحة وفي كل لحظة صفةٌ، لكن التفاوت بين كل لحظتين لا يصل إليه عقول البشر.

وأما جريان المحدثات فإنه تعالى لما ذكر من الحيوان الأنعام قال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨]، ثمَّ قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، والمعنى: أنه لا يمكنكم أن تُحيطوا عِلْمًا بتفاصيل أحوال جميع الحيوان بكثرتها واختلاف أحوالها فالعقول قاصرة عن معرفة الأوائل والأواخر، كما لا سبيل لها إلى معرفة الأبد والأزل، ولو أنه بقي إلى قيام القيامة يتقدم إلى ما قبل ويتأخر إلى مَا بعد ولم ير نفسه إلّا في الوسط بين الأزل والأبد [٤٤/ظ] متنزهة عن لواحق الأبصار في علائق الأفكار.

* **الثاني**: أن المبصر إذا كان حَاضرًا بحيث لم يحرك حدقته من معقول إلى معقول لا يتمكن من إبصار المطلوب فتلك الحركات هي المسماة بالفكر والرَّويَّة والنظر، فكما أن تقَلُّب العين هو تقلب الحدقة من جهةٍ إلى أُخْرى طلبًا لرؤية المرئي، فكذا نظر القلب هو تقَلُّب حَدقته من جانب إلى جانب؛ طلبًا لإدراك المعقول.

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٩٤).

* **الثالث**: أن القوة الباصرة لا يمكنها إدراك المبصرات إلّا عند مُرور الهواء مضيئًا بسبب طلوع النيرات.

ثمَّ نيرات العالم الجسماني[1] أربعةٌ: الشمس، والقمر، والكواكب، والنار، وأعظمها الشمس فالقمر.

فكذا نيِّراتُ العالم الروحاني أربعة: أولها نورُ جلال الله كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وهي كالشمس فكما لا تستطيع أبصار الخفافيش مطالعة قرص الشمس لا تستطيع الأرواح البشرية [٤٥/و] مطالعة نور الجلال فهذه المرتبة مرتبةُ نور الشمس، والمرتبة الثانية مرتبة أنوار الأرواح العلويَّة والروحانيَّة والكُرويَّة وأكابر الأنبياء والصدِّيقين، فهم الذين يطيقون مطالعة هذه الأنوار وهذه المرتبة بمنزلة القمر فكما أنه تارة يضيء للعالم إضاءةً كاملةً، وتارةً يكون هلالًا رقيقًا[2] يظهر ثم يخفى، فكذا الأرواح العلويَّة تكون عظيمة الإضاءة؛ لقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وتارة يكون كالهلال الضعيف وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

* **المرتبة الثالثة**: أنوار الأرواح السفليَّة، وهم الملازمون لهيبة جلال الله المتعلقون في حظائر قُدُس الله، استنارت أرواحهم، وأناروا أرواح غيرهم، فهذه مرتبة بمنزلة الكواكب، فكما أنّ الكواكب تكون في [٤٥/ظ] العظم الأول دُريَّةً مُتلألئةً وقد تكون ضعيفة جدًّا كالسُّهَا[3] وأمثالها، فكذا الأرواح السفلية به منها قوية ومراتبها أربع:

---

(١) يعني المادي.

(٢) كذا- ويحتمل: دقيقًا.

(٣) كوكب معروف بصغره وضآلة حجمه.

* **الأول**: الذين في العِظَم الأول، وهو روح الخليل، والحليم، والروح، والحبيب، فإن أرواح الخلق تهتدي بأنوارهم؛ لأنها أرواح قدسية قريبة الدرجة من الأرواح العلوية.

* **الثاني**: الذين في العظم الثاني وهي أرواح أولي العزم.

* **الثالث**: أرواح المرسلين وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فهم في العظم الثالث من الكواكب(١).

* **الرابع**: أرواح جملة الأنبياء والمرسلين وهم مائةُ ألفٍ وأربعة وعشرون(٢) ألفًا وهم الذين في مرتبة العظم الرابع من الكواكب، ثم بعد هذا مراتب المؤمنين وهم ثلاثة سابقون ومقتصدون وظالمون(٣)، فالسابقون: الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والمقتصدون: العلماء قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ [٤٦/و] يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، والظالمون: العوام ولكل واحدة من هذه الأرواح أثر ونور بصيرة كالمِرَاءَات(٤) المتجاذبة وينعكس أنوار بعضها إلى بعض فتصير كل واحدة منهما مُكمِّلةٌ للأُخرى من وَجْه، ومستكملة بها من وجه، ولهذا كان أحد مقدمات الصديقين الحب في الله.

* **المرتبة الرابعة**: العقل ومرتبته النار في عالم الجسمانيات ونُور العقل له عُيوبٌ كثيرة:

---

(١) ما هذا الكلام؟ من أين له بالدليل على ذلك.

(٢) الحديث الوارد فيه باطلٌ من رواية الغسّاني- وهو كذابٌ. وانظر: فردوس الجنان للمناوي بتحقيقي، وكنز الراغبين العفاة للناجي بتحقيقي.

(٣) يشير إلى آية: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وفي الحديث: «سابقنا: سابقٌ، ومقتصدنا: ناج، وظالمنا: مغفورٌ له» رواه ابن مردويه (٢/ ٢٩٢٥/ كنز)، والبيهقي في البعث والنشور (٨٤) وله شواهد.

(٤) كذا.

* **الأول**: أنَّ نُوْر النار ممزوجٌ بدخان كثير يسود الثوب ويجفّف الدماغ، فكذا نور العقل ممزوج بدخان الشبهات وذلك الدخان تارةً يسود العبودية بلحظ التشبيه والتعطيل، وأخرى يجفف العقول البشرية فيلقى صاحبه في وَهْم الإلحاد والحلول.

* **الثاني**: أن نور السراج فيه إشراقٌ وإحراق، ونور العقل فيه إشراق وإحراق [٤٦/ظ] فإشراقه التفكر في الله وفي الخلق، وإحراقه التفكر في جلال الله؛ ولذلك قال المُصْطفى ﷺ: «**تَفكَّرُوا في الخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا في الخالق**»[١].

* **الثالث**: أن نور السراج ينطفئُ بأدنى نَفْخ، ونُوْرُ العقل ينطفئُ بأدنى شبهة، ولذلك قال للمصطفى ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال الخليل[٢]: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، والكليم[٣]: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥]، والرُّوح[٤]: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، وتلك المائدة مائدة الهداية[٥] والمعرفة، ويوسف: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* **الرابع**: أن السراج إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت صغير، فَإِنْ وُضعَ في صَحْراء قلَّ ضَوْءهُ، فكذا سراج العقل، إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت البدن كما قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فإن هذا البيت بيتٌ مختصر، ألا ترى أن سراج العقل لما وضع في ميدان [٤٧/و] الأرواح لا

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة (١/ ٤)، وسنده حسن بالشواهد.

(٢) إبراهيم عليه السلام.

(٣) موسى عليه السلام.

(٤) عيسى عليه السلام.

(٥) هذا من التفسير الإشاري المتكلف المفسد للألباب والأفئدة، والصحيح أنها مائدة حقيقية عليها طعام وشراب. اهـ.

يظهر فاعرف كيف يكون حاله في صحراء جَلال الآحاد الصمدانية وفضاء كمال الأسرار الإلهية تقدست عن أن يكون لها بداية ونهاية أو منقطع أو غاية.

* **خامس**: ظُهورُ نور السراج مشروط بأن يكون بينه وبين نور الشمس حائل فلو وضع في مقابلة قرصها انطفى فكذا العقل إنما يضيء فيما وراء حجاب الغيب وعالم الأنوار الصمدية، فإن أزيل الحجاب تجلَّت الأنوار انطفأَ نُور العقل، ولهذا قال لموسى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، إشارة إلى تلاشى قُوَّةِ العَقْل واضْمِحْلالِه[1]، وقوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [طه: ١٢]، إشارة إلى تجلي أنواع العظمة والكبرياء.

* **السادس**: أن نور السراج وإنْ دام بقاؤهُ، لكنه ينطفئ آخِرًا لأنه إذا طلعت الشمس بطل نوره، فكذا سراج العقل إمّا أن ينطفئ بطرو الغفلات والشهوات أو يبقى إلى آخر الأمر لكنه [٤٧/ظ] إذا انقَضَى ليلُ الحياة الدنيوية وتجلى نهار عالم الآخرة، وانكشفت السرائر، وتجلّت الضمائر ولم يبقَ لسراج العقل نور ولا قوة.

* **الشرط الرابع**: كما أن انتفاع البصر بنيرات عالم الجسمانيات يتوقف على أمور فكذا انتفاع البصيرة بنيران عالم الروحانيات؛ لأن إبصار الأشياء ورُؤْيتها يختلف بالكمال والنقص، فتارة يرى الإنسان شيئًا رُؤيةً تامة، وتارة رؤية ناقصة، وهذا التفاوت إنما يعودُ إلى تمام القوة الباصرة أو إلى أمور خارجة، فكذا إدراك البصيرة تختلف بالكمال والنقصان والتفاوت قد يكون بسببٍ عائد إلى ذات البصيرة، أو إلى أُمُور خارجة والعائد إلى ذاتها على وجهين:

---

(١) بل هو حقيقةٌ، لا إشارة فيه.

- **أحدهما:** اختلاف جواهر الأرواح كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فدَلَّ [٤٨/و] على أن أرواح هذه الشِّيْعَة[١] من معشر البشر مخصوص بمزيد قوة وجلالة ورفعة، فتارة تَظْهرُ آثار تلك القوة بالنبوة، وتارة بالخلافة، وقال في صفة عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وفي صفة محمد ﷺ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، ثم ترقى من عالم المِلْك إلى عالم المُلْك فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١- ٢]، ثم انتقل من خطاب الغيبة إلى خطاب الحضور فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال في حق جميع الأنبياء على العموم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ﷺ: «**الأئمَّةُ مِنْ قُرَيْش**»[٢]، وهو إشارة إلى اختصاص هذه بمزيد قُوة نفسانية روحانية فلما لم تَظْهَر أثر تلك القوة النبويَّة بعد المُصْطفى لابد من إظهار أثرها بالخلافة والرئاسة وكل ذلك يدل على اختلاف هيئاتها فمنها ما هو في غاية الجلالة والقوة، [٤٨/ظ] ومنها ما هو في غاية الضعف وهذا الاشتغال الذي لا سبيل إلى تدبيره.

* **الثاني:** اختلاف جواهر الأرواح بصفة من الصِّفات العَرضيَّة القابلة للْعلَاج ومثاله في الجُسمانيات: أنه قد يكون ضعفُ البصر لا للخلقة الأصلية بل لعارض أورث ضعفه، فإذا استعمل كُحْلًا قويًا أفاده زيادة قوة[٣]، وكذا الأرواح قد يعرض لها عارض فيحصل بسببه نوع ضلال فهذا النوع قد يطرأ وقد يزول، وأما التفاوت الحاصل بسبب الأمور الخارجية

---

(١) الجماعة.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٤/ ٧٦)، والبيهقي في سننه (٨/ ١٤١)، وسنده صحيح، بل أفرده ابن حجر بتأليف مطبوع، وكذا غيره.

(٣) يعني في الإبصار.

فأنواع:

* **الأول**: الاشتغال بغير الله، ومثاله في عالم المحسوسات أن من شغل نظره بالنظر إلى شيء منعَهُ من إبْصَار غيره، ثم كُلّما كان التحديق إلى الأول أشد وأكمل فالحرمان عن إبصار الثاني أشدّ وأكمل، فكذا عالم الروحانيات كلما كان اشتغالُ القلب بغير الله أشدّ وأكمل [٤٩/و] فحرمانه عن الاطلاع إلى جلال الله أشدُّ وأكمل؛ ولذلك حكم تعالى بالمنافاة بين الأمرين بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، وقال المصطفى ﷺ: «**حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئة**»(١)، ثم إذا أنصفنا علمنا أنّنا كالمعذورين في حبِّ الدنيا، وكيف لا نحبها وإنما خُلِقْنا فيها وارتضعنا من طعامها وتَربَّيْنا على ظهرها وشاهدنا أحوالها، ولو اتفق لبعض الناس نادرًا الاطلاع على شيء من الروحانيات فإنَّما يكون بعد استحكام الإلف(٢)، فمع هذه الأسباب القوية كيف ينتقل القلب من محبة الدنيا؟! أَلَيْسَ قال عليه السلام: «**جُبِلَت القُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أحسن إليها**»(٣)، وكَم انتفعنا بطعامها وشرابها ولذّاتها فلا محالة أنَّا مجبولون على حُبِّها فإذا علم ذلك فنقول: كل من أحب [٤٩/ظ] شيئًا نظر إليه بكل عينيه، ومن نظر إلى شيء بكل عينيه لم ير غيره، وأيضًا من كان محبًا لشيء عمي عن رؤية عيوبه، وصار مُشتغلًا برؤية محاسنه.

وأيضًا إذا استحكمت تلك المحبة امتلأ القلب منها، والقلب إذا امتلأ من شيءٍ لم يتّسع لغيره، فهذه قلوب لا تدخلها محبة الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٠٥٠١) عن الحسن البصري، مرسلًا.
* قلت: ولا يصحُّ رفعه. وقد أفرده الشوكاني وغيره بالتأليف.

(٢) المودة.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل (٢/ ٢٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٨٩٨٣)، والخطيب في تاريخه (٤/ ٢٧٧)، و(١١/ ٩٤) ولا يصحُّ سندهُ.

وذلك لأنه كانت قلوبهم ممْلُوءة من حب الدنيا، فكانوا لا ينتفعون بما يرون ويسمعون، وهذه الحالة كلما كان دوامها أكثر كان استحكامها أشد، وهو مرضٌ كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، والمرضُ ما لم يستحكم يُرْجى علاجه، وإذا استحكم فَلا، وإليه أشار بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، وبذلك ظهر أن الكل منه وإليه وأن الخير والشر بتقديره [٥٠/و] وقضائه، وهنا سؤالات:

* **الأول**: إذا استحكم مرض القلب فلم لا يسقط الخطاب؟

- **فالجواب**: عدم السقوط، فقد يشتغل بالتوبة قبل انتهائه إلى هذه الحالة خوفًا من انتهائه إليها.

* **الثاني**: أنَّا إذا كنا مجبولين على حب الدنيا وحبها يوجب الإعراض عن الآخرة، ثم إنا مع ذلك أُمِرْنا ببغض الدنيا، وحب الآخرة، فكيف هنا مع قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؟

- **فالجواب**: أن العبد لا قدرة له على الوَفَاء بهذه الطاعة إلا بفضل الله وإعانته(١)، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ بقول كل يوم مرات(٢): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

* **الثالث**: أَليس أن الدنيا أُمٌّ حاضنةٌ؟ فما السبب في أن الله أوجب بُغْضَها(٣)؟

- **فالجواب**: أن حُبَّها مانع من حب الله(٤)؛ لأنه فرض بغض الأبوين

---

(١) كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

(٢) يعني في قراءة الفاتحة في الصلاة.

(٣) هذا فهمٌ خاطئٌ فالله لم يوجب بغض الدنيا، بل أمرنا بعدم إيثارها على الآخرة كما قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

(٤) أبدًا أبدًا، بل ما طابت الدنيا إلّا بذكره تعالى كما قال ذو النُّون- رَحِمَهُ اللَّهُ- ولأجل ذلك خلق الدنيا.

الكافرين.

* **الرابع**: ما علامةُ [٥٠/ظ] رُجْحان حبِّ المولى على حبِّ الدنيا؟

- **فالجواب**: ترجيح المحبة على المحبة إنما يظهر بأحد أمرين:

فَقْدُ الحزن عندَ القَصْد[١] وفقد السرور عند الوجدان، وما لم يترجح حبُّ الآخرة على حب الدنيا فلا إيمان فإذا حصل الرجحان فلا يطلب الإيمان إلا عند زوال العارض من كل الوجوه، وعلامة ذلك أن لا تخطر الدنيا بباله إلا عند الحاجة إليها.

* **السبب الثاني**: لتفاوت هذه الأنوار الرّوحانية طَيَّبَ الغذاء وخَبّثهُ وسببهُ أن الغذاء يصير جزْءًا لشيء يختلف حال ذلك الشيء باختلاف حاله، فإن ثبت أن طينه بطين كدرها كدرًا أو بطين أبيض صاف جاء نورانيًّا صافيًا، فإذا اختلف البدن باختلاف الأغذية اختلف حال تكدر الأنوار بسبب اختلاف حال تلك الأنوار بسبب اختلاف حال ذلك البدن، ألا ترَى أن الماء الصَّافي يكون لونه لون إنائه.

* **السبب الثالث**: [٥١/و] الأمكنة والأزمنة، أما الأمكنة، فلقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، والأزمنة قال تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وهذا يدلُّ على أنها إذا كانت أيام رحمة كانت متصفة بالسعود ليسعد فيها كل من عمل عملًا، وفي كلامهم: الوقتُ سَيْفٌ قاطعٌ[٢].

ولأرباب القلوب في معناه كلام.

قال الرازي: والذي أميل إليه أنّه تعالى عين كل قلب لحادث، فصار

---

(١) كذا.

(٢) يروى هذا عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: الوقت كالسيف إن لم تقطعهُ وإلّا قطعك.

* مناقب الشافعي (٢/ ٥٣٠)، بهجة النفوس (٣/ ٩٦)، التبصرة لابن الجوزي (٢١١).

ذلك الوقت مَرْبوطًا به برباط المشيئة الأزلية الذي لا يمكن رفعه، فإذا جاء الوقت جاء معه حادثة، فكما أن السيف قاطعٌ فالوقت بما يقضيه الحق غالبٌ، فإذا كان الوقت الذي فيه تفتح خزائن رحمته متأخرًا فلا ينفع الجد والجهد في الزمن المتقدم.

* **الرابع**: وهو الأقوى: الجذبة العلويَّة(١) والهداية الإلهية ولا تتمُّ جميع الأسباب إلا بذلك ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ [٥١/ظ] وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فهذا مَبدأُ هذه الدرجة، ووسطها: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ونهايتها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وأيضًا الإشارة إلى أوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وإلى وسطه ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وإلى آخره: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإذا وصل القلب إلى هذه الدرجة يكون في عالم القلوب كالشمس في عالم الأفلاك، وعند هذا تَبقَى مُسخَّرة في أنوار عالم الجلال كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا(٢) درجة أصحاب اليمين كما قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠]، وبعد هذا درجات لا يصل إليها الخيال، ولا يعبر عنها المقال.

* **الشرط الخامس**: أنَّ الجنين حين يكون في الرَّحم في أول ما خلق الله عينيه يكون جفناه مُلتصقين، ثم بعد زمن يفصل أحد الجفنين عن الآخر، لكن يكونان [٥٢/و] منطبقين فإذا انفصل يفتح عينيه أحيانًا ويغمضهما غالبًا، ويكون قائمًا وعند فتح العين يكون جاهلًا بأُمِّه، ثم لا يزال ينظر إليها حتى يميز بين الخير والشر، ثم لا يزال ينظر بعين عقله حتى يدرك الفرق بين المحسن والمسيء، فكما أن الأمَّ تعذر الولد في أول عمره أن لا يعرف

(١) لا دليل على هذا الكلام، ومن أدرانا أنها جذبة؟! فقد تكون لمة شيطان!!.

(٢) كذا- والمراد: الشأن والأمرُ.

ربه وذلك قبل البلوغ، ثم إذا واظب على النظر في أفعال الله تعالى وآثار حكمته حصل له عتقٌ ومَحبّةٌ فلا يرى بعقله إلّا الله، وينتقل منه إلى مبدئه وغايته.

أمّا المبدأُ فهو قدرة الحق، وأما الغاية فهو حكمة الحق فيصير لا يرى شيئًا إلّا ويرى الله معه وحينئذ يستنير سره كما يستنير القمر بمقابلة الشمس والقلب في هذا المقام استلذ بالنظر وألفه فهو أبدًا يقلب القلب حدقته من منظور لآخَر وقد كان للقلب قبل [٥٢/ ظ] ذلك عينٌ واحدةٌ والآن صارت كلُّ ذرة من ذرات المبدعات والكائنات عينًا للقلب؛ لأن العالم كله يصير مرآة له، فالمرآة للعين بمنزلة بصر زائدٍ، فإنه يرى بها ما لا يرى بدونها فتصير كل ذرة من ذرات الممكنات عينًا له والعين ينبوع النور فيصير كل عالم ينبوعًا للنور في حقه وإن اتصلت أنوار العلم صار كله نورًا.

الباب الثالث
في الاستدلال بأحوال الحيوانات على قدرة الصانع الحكيم

وفيه فصول:

- **الأول: في الاستدلال الكلي بأحوال الحيوان عليه.**
- **الثاني: في الاستدلال بأنواع الطيور عليه.**
- **الثالث: في الاستدلال بالنحل عليه.**
- **الرابع: في الاستدلال بالبعوض.**
- **الخامس: في الاستدلال بالذباب.**
- **السادس: في الاستدلال ببقية الحيوانات المذكورة في القرآن.**
- **السابع: في الاستدلال بحيوان الماء.**

[٥٣/و] ۞ **الفصل الأول** ۞

في الاستدلال الكلي بأحواله

قَبْلَ الخَوْض في المقصود لابُدَّ من إشارةٍ إلى تقسيم الحيوان فنقول: الحيوانات التي تطير في الهواء قسمان:

* **أحدهما**: الطيور.

* **والثاني**: الحراشات[١].

والفرق بينهما أن كل حيوان صغير الجثّة ليس له عظمٌ ولا ريش فمن الحراشات، وما له عظم وريش فمن الطيور، فأقسام الحيوانات خمسة: قسمان منها من حيوان الهواء.

* **والثالث**: حيوان الماء.

* **والرابع**: حيوان وجه الأرض.

* **والخامس**: حيوان تحت الأرض وهي الحشرات والمراد منه إنما يوجد في حيوان وجه الأرض فهو دون حيوان الماء في العِظْم، وبعدهُ حيوان وجه الأرض.

وآخر المراتب في الصغر المتولدة في داخل الأرض، ثم نقول: اعلم أنه سبحانه استدل بخلقة الحيوان على وجود الصانع تارةً مجملًا وتارة مفصَّلًا كما سيأتي.

أما المجمل: [٥٣/ظ] فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] الآية، ثم عقَّبه بما يدل على وجود الصَّانع الحكيم بثمانية أنواع من الدلائل، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهما دليلان، ثم قال: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهو دليل الثالث والرابع ثم قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ

---

(١) كذا.

﴿ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية، وهو الخامس، ثم قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهو السادس ثم قال: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهو السابع، ثم قال: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهو الثامن ثم لما ذكر الثمانية مدح المتفكرين فقال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

* **المقصود**: أن يحتج بخلقةِ الحيوان على وُجُود الصَّانع وهو ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وحينئذ يَلْزمنا أنْ نبحثَ عَن وُجوه دلالة هذا الدليل فنقول الاختلاف الحاصل في صورها وأشْكَالها فيه وجُوهٌ:

- **أحدها**: الاختلاف في الجلدة الظاهرة [٥٤/و] كالسلحفاة يُحيطُ بها صدفٌ وبعضها كالسمك على جلده فُلُوسٌ[1]، وبعضها على جلده شوك كالقنفذ وبعضها على جلده ريش وجناح كالطير، وبعضها ظاهره شعر ووَبَرٌ وصُوْفٌ كالدواب، وبعضها عار من كل كالإنسان.

- **الثاني**: الاختلاف في اللون والشكل فمنها ما هو بلَونٍ واحدٍ، وهو الإنسان، ومنها ما هو بلونين كالفرس الأبلق[2]، ومنها ما هو بألوان كثيرة عجيبة كالطاووس.

- **الثالث**: الاختلاف في الأصوات، فمنها: ما هو مُصوِّتٌ، ومنها: ما لا صَوْتَ له، ومنها: ما هو طيب الصوت كالعندليب، ومنها: ما هو قَبيحهُ كالحمار.

- **الرابع**: قد يكون صغير العين كالعَقارب، أو تكون عينه سريعة التحَرُّز من الضَّوء كالحيَّات.

- **الخامس**: منه ما يمشي على بطنه وما له رجلان كالطَّائر والآدمي، وما له أربع كالبهائم والسِّباع، وما له [٥٤/ظ] أرجل كثيرة، وكل طائر

(١) قِشْرٌ.

(٢) الأبلق: ارتفاعُ التحجيل إلى الفخذين.

كالغراب فإنه يمشي برجليه، ومنها ما المشي عليه صعب كالخطاف الأسود الكبير والخفاش، ومنها ما يكون جناحه جلدًا أو غشاء.

- **السادس**: ثَدْي الإنسان والفيل يكون عند الصَّدْر، والبقر والغنم عند السرة.

- **السابع**: آذان الفيل آلة للذَّبِّ[1] مع كَوْنها آلة للسمع، وأنفه آلة للقبض مع كونه آلة للشم، فهذا اختلافها في الخلقة الظاهرة.

- **الثامن**: اختلافها في المأْوى، فمنها مائيَّة وأرضيَّة، وما يكون مائيًا وأرضيًا معًا والمائية ما يكون غذاؤه ومكانه ونفسه مائيًا وله بدل النَّفَس النَّسمي تنشقُّ مائيٌّ يقلب الماء إلى باطنه، ثم يرده ويموت بمفارقته والسمك كله كذلك، ومنها ما مكانه وغذاؤه مائي ولا يتنفس ولا يستنشق كالصَّدَفِ[2] ولا يظهر للهواء ولا يستدخل الماء لباطنه.

وأيضًا: الحيوانُ المائي [٥٥/و] بعضهم في الأنهار، وبعضهم في البطائح كالضَّفَادع[3]، وبعضهم في البحار، وأمَّا الحيوان المنتقل في الماء فمنها ما يعتمد في غوصه على رَأْسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك، ومنها ما يعتمد على رجليه كالضِّفدع، ومنها: ما يمشي في قَعْر الماء كالسَّرطَان[4]، ومنها ما يزحف كَضَرب من السَّمك لا جناح له.

وأما الحيوان البريّ، فمنه ما يتنفس من طريق واحد كفمه وخيشومه، ومنها ما لا يتنفس على هذا الوجه بل يُباينه كالزُّنْبور والنحل.

وأيضًا الحيوان الأرضي منه ما له مَأْوَى معلوم، وما لا مأوى له لكنه

---

(١) دفع الحشرات والأذى.

(٢) وتتكون في داخلِهِ اللؤلؤة النفيسة.

(٣) جمع ضِفْدع، وهو حيوانٌ برمائيٌّ.

(٤) حيوان مائيٌّ معروفٌ.

يلد ثم يقيم للحضانة، وما له مأوى فبعضه مأواه شق، وبعضه مأواه حفر وبعضه فله رأسه، وبعضه وجه الأرض، وأيضًا الطير مختلف فبعضه مجانس كالكُرْكيّ(١) وبعضه يحتاج لتفرد كالعقرب، وجميعُ الحيوان الذي يتنازع [٥٥/ظ] المأكول ينفرد لاحتياجه للاحتيال للصّيد، ومنافسته فيه، ومنها ما يتعايشان زوجًا كالبطِّ، وما يجتمع تارة ويفترق أخرى، والمنفرد قد يكون مائيًّا، وقد يكون بريًّا، والإنسان من بين الحيوان هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده، فإن أسباب حياته لا تَتمُّ إلّا بالمشاركة والنحل والنمل والكُرْكيّ يشارك الإنسان في ذلك؛ لكن النحل والكُرْكيّ يطيع رائسًا واحدًا والنمل له اجتماع لكن بلا رائس.

وأمّا الحيوان الذي يكون تارة مائيًا وأخرى أرضيًا(٢) فيكون في البحر وَيعيش فيه، ثم يَبْرد في البر ويعود إلى البحر.

واعلم أنّ الحيوانَ، منهُ ما هو أُنْسيٌّ بالطّبْع كالإنسان وما هو أنسي بالمداراة كالهرَّة والفرس وما هو أنسي بالقهر كالفهدِ، وما لا يأنس كالنمر، وما يحصل استئناسه سريعًا ثم يبقى مُسَاسًا(٣) كالفيل، وما يكون بطيئًا كالأسد وبعضها ساكن [٥٦/و] الطبع قليل الغضب، وبعضها رديء كالحية، وبعضها شجاع كريم النفس كثير الطمع كالأسَدِ، ومنها قويٌّ وحْشِيٌّ كالذئب، ومنها رديء الحركات كالثعلب، ومنها عَضُوضٌ سفيه لكنه متردد كالكلب، ومنها شديد الذكاء كالفيل والقرد والفرس، وبعضها حسود مباهي بجماله كالطاووس، وبعضها شديدُ الحقد كالجمل.

وتختلف أيضًا في التناسل فمنها من تلد أنثاه دودًا كالنحل

---

(١) طائر معروفٌ، كانوا يسمونه في مصر بالأوز العراقيّ، وجمعه: كَرَاكي.

(٢) كبعض السلاحف، والضفادع، والتمساح.

(٣) مُقادًا.

والعنكبوت(١)، ثم إن تلك الدود تستكمل أعضائها بعد ذلك وإذا ظهرت الخشونة وقت الربيع طلب الجراد أرضًا طيبة التربة رخوة وطرح بيضه فيه، ثم طار وعاش أيامًا ومات فأكلته الطيور فإذا دار الحول وجاء الربيع خرج من ذلك البيض المدفون أمثال الديدان الصغار، ودب على الأرض وأكل الشُّعَب فتخرج له أجنحة ويطير [٥٦/ظ] ثم يبيض في العام الآتي، وهكذا بتقدير العزيز العليم.

وأما دُودُ القزِّ الذي على رُؤُس الشَّجر في الجبال، فإنه إذا شبع من الرعي أيام الربيع وسمنَ نسجَ على نفسه من لُعابه كالعُشِّ والكِنّ(٢)، ثم ينامُ فيه أيامًا معلومة، فإذا انتبه طرَحَ بَيْضًا في آخر الكِنّ ثم ينقبه ويخرج منه ويشدُّ ذلك النقب، ثم تخرج له أجنحة فيطير ويأكل الطين فإذا مات من الحرِّ والبرد والمطر والريح يبقى البيضُ في تلك الأكنان محروزًا(٣)، حتى يأتي زَمن الربيع، فيخرج منه ديدانٌ صغيرة، وتدُبُّ على ورق الشجر أيَّامًا معلومة، فإذا أشبع وقَرى(٤) نسج على نفسه كالعام الأول وهذا دأبه بتقدير العزيز العليم.

والاستدلال بأنواع هذه الحيوانات على وجوه:

* **الأول**: أنه خلقها مختلفة الصُّور متفرقة الأشْكَال بعضها كثير الآلات، فلما أعطى الفيل [٥٧/و] الجُثَّة العظيمة القوية الشديدة حتى يدفع عن نفسه المكاره بنابه الطويل الصَّلْب ويتناول بخرطومه الطويل أنواع المنافع أعطى البعوضة على صغرها جَناحين لَطيفين حتى قدرت على

---

(١) والفراشات.

(٢) الكهف والمبيت.

(٣) محفوظًا مُصانًا.

(٤) أكَلَ.

سرعة الطيران وتناول الغذاء بخُرْطُومها فصار الصغير والكبير في هذه المواهب متساويًا في جَلْبِ المنافع، ودَفْع المضار.

وهنا لطيفةٌ عجيبةٌ: هي أنك ترى ما كان منها أصغر جُثة وأقل حيلة أكثر راحة وأطيب عيشًا وأقل اضطرابًا في جَلْب المنافع ودفع المضار مما هو أقوى قوةً.

ومنها: ما كان قوي القُوَّة كامل البنية يدفع عن نفسه المكاره بالقهر والغلبة كالأسد والفيل.

ومنها: ما يدفع المكاره بالفرار وسرعة العدو كالغزلان والأرانب.

ومنها: ما يدفع بالطَّيران في الجوّ كالطير.

ومنها: ما يغوص [٥٧/ ظ] في الماء.

ومنها: ما يدفع بالاخْتفاء في ثقب أو جحْر كالفأْر والنَّمْل[١].

* وأمَّا طلبها للمنافع: فتارة بقُوَّة البصر، وتارةً بشدَّة الطيران كالنسر والعُقَاب، وتارة بقوة الشَّمِّ كالنحل والنمل، وتارة بقوة السمع كالخُلْد[٢].

وأمَّا الحيوانات الصِّغار الجثة الضِّعاف البنية التي لا آلة ولَا إدراك ولا إحساس له كالدود، فإنها خُلقَت في أماكن كَمينة[٣] ومواضع حَريزة- كالنبات وحبّ النبات وجَوْف الحيوان- الطين والسِّرْجين[٤]- وجعل غذاءها محيطًا بها، وجعل في جميع بدنها قوة جاذبة لمصِّ الرطوبات المقوية لأبدانها، ولم يحوجها إلى طلبٍ وهربٍ، فَسُبْحان الله الخلّاق العظيم الذي أعطى كل شيءٍ مصلحته.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

(٢) نوعٌ من الجُرذان- كبير الفأر- أعمى كسلان، يسكن الظّلَم والجحورَ.

(٣) خفية.

(٤) الروَثُ والجلّةُ.

[ظاهرةُ الكثرة والوَفرة في خلق الله]

* **الثاني**: أنَّ هذه الحيوانات كثيرة جدًا، فحَيَوانات البَحْر ستمائة نوع وحيوانات البر خمسمائة[(١)] نوع، البَشرُ واحدٌ منها[(٢)]، فإذا كان [٥٨/و] كذلك فكيفَ يمكن الاطِّلاع على أحوالها وعجائبها، لكن وجه الاستدلال بها على الصَّانع ظاهر، هو: أنه لو كان السبب لوجودها تركيب الطبائع وتأثير الأفلاك والكواكب، فذلك بالنسبة إلى الكلِّ على السَّواءِ؛ بل صريح العقل يشهد بأنَّ اختصاص كلِّ واحد بماله من الأشكال والصفات والقوى لابد أن يكون بتدبير قادرٍ حكيم.

وقد نبَّه تعالى في القرآن على عَجْز البشَر بالإحاطة بعلم الحيوان في عدّة أماكن من القرآن وحَكَّمَها[(٣)] بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، والمقصود من ذلك التنبيه على أنه ليس للعقول البشرية الاطلاع على تمام الحكمة الإلهية في تدبير العالم العلوي والسفلي.

بل نفَوِّضُ أسرارها إلى علمه المحيط بالغيوب المقدَّس عَن العيوب.

---

(١) كذا، وهو يشير إلى حديث: «خلق الله تعالى ألفَ أُمّة: ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر، وأول شيء من هذه الأمم هلاكًا: الجرادُ، فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه» رواه نعيم في كتاب الفتن (١/ ٢١٥)، وابن عدي في الكامل (١/ ١٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٣٥)، و(١٠١٣٧) وسنده ضعيفٌ.

(٢) إدخال البشر في جملة الحيوانات لا يجوزُ ولا يصحُّ، فقد كرمهم الله وكلفهم بالتكاليف الشرعية، وجعلهم خلائف الأرض.

(٣) أكّدها.

[شُبهةٌ وجوابُها]

* **وهنا سؤالان:**

* **الأول:** قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا [٥٨/ظ] طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، ظاهرها يُوْجبُ مَذْهب التناسخ[١] من وجوه:

- **الأول:** قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، يقتضي حصول المماثلة بينهما في الروح والعقل والإدراك والتكليف.

- **الثاني:** ثبت بالآية أن كل نوع من الحيوانات أمة فيجب أن يحصل في كل واحد منها رسولٌ ونذير، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والإنذار لا يتحقق إلَّا في حقِّ العقلاء المكلفين، وهذا يقتضي أن الحيوان مكلفٌ بالطاعات.

- **الثالث:** ما روى عن أبي الدَّرداء: أُبْهِمت عقولُ البهائم عن كل شيءٍ إلَّا أربع:

معرفة الرّبّ[٢]، وطلب الرِّزْق، ومعرفة الذكر والأُنْثى، واهتمام[٣] كلّ واحدٍ منهما بأمر صاحبه.

والجواب: أن لَفظ المثل لا يقتضي المثلية في كل شيء فإذا حملت الآية على ثبوت المثلية ولو في شيء واحد وفينا بمقتضى اللفظ، وأما التخيُّل [٥٩/و] بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فجوابه: إنه مخصوص بالأمة الموصوفة بالعقل بالدلائل العقلية وبإجماع الأمة.

---

(١) مذهب كفريٌّ باطلٌ، وهو تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر بغير تحلل زمن بين التعلقين. * التعريفات للجرجاني (٧٢)، التوقيف (٢٠٨).

(٢) في الرازي (٧/ ٥١٣): الإله.

(٣) في الرازي (٧/ ٥١٣): وتهيُّؤ.

*** السؤال الثاني: مَا الحِكْمَةُ في خَلْق الحَيَوَاناتِ المؤذية كحية وعقرب وذئب وأسد؟**

الجواب: أن لمالك الملك والممالك أن يفعل ما يشاء، إلّا أن وجوهًا أُخَر: الأول[1]: أنه تعالى رَغَّب المكلفين في الطاعة بالوعد بالثواب، ووبَّخَهم على المعاصي بالتوعد بالعقاب حتى تكمل رغبتهم في الثواب ونفرتهم عن العقاب، فأظهر في الدنيا أنواع اللذات وأنواع المحن والآفات؛ ليكون ذلك كالمعدن لأحْوال الثواب والعقاب، فجعلها مُذكّرة للعذاب في الآخرة.

(١) أيضًا هذه الحيوانات السّامّة توضح أن الدنيا دار نقْصٍ وكدرٍ إذا ما قيست بالجنة دار السَّلام.

* كذلك فهذه المؤذيات تؤدِّي دورها في الانتفاع بها وتسخيرها للإنسان في العلاجات والمعاجين والأدوية التي تستخرج منها، والأمصال واللقاحات التي توجد فيها.

* فالحيَّة مثلًا: يصنعُ منها الترياق، ومضادّات السموم.

* والعقربُ: يستخرج من سمِّها أدوية فعَّالةٌ.

* والذِّئب: يُعالجُ بنابه ويبخّرُ بجلدِه.

* والأسدُ: في رجله وشعره وجلده ونابه علاجٌ لبعض الأمراض- فسبحان الله.

۞ الفصل الثاني ۞

في الاستدلال بأنواع الطيور على وجود الصانع

قد ذكر تعالى الاستدلال بوقوف الطّير في الهواء[1] على وجود الصَّانع في مواضع من القرآن بقوله: [٥٩/ظ] ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[2]﴾ [النور: ٤١]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ [الملك: ١٩].

وهَلْ يجوز أن يكون الطير والبهائم عارفة بها أم لا ؟

جَوَّزَ أكثر أَرْباب الأخبار والآثار ذلك واحتجوا بأنَّ كونها عارفة بربها مشتغلة بتسبيحه جائز في العقول، والنصوص وردت[3] بوقوعها فوجب الاعتراف به .

أما العقليُّ فدل عليه وجهان:

* **أحدهما**: الإجمال.

* **الثاني**: التفصيل.

أمّا الإجمالُ: فهو أن حصول الفهم والعلم في ذوات هذه الحيوانات، فمن جملة الممكنات والله تعالى قادر على كل الممكنات.

وأمّا التفصيل: فهو أنَّا نشاهد منها أفعالًا لا تصدر إلّا من أفاضل العُقلاء، وهو يدل على كونها عاقلة[4] وحيث كان كذلك ثبت جواز كونها عارفة بربها ونبين ذلك من [٦٠/و] وجوه:

---

(١) وهو التوازن كما عند الصقر والبازيّ، والشاهين.

(٢) باسطاتٌ أجنحتهن.

(٣) كما في آية النور، وكما في الإسراء: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

(٤) بل هداها الله لذلك كما قال: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

- **أحدُهَا**: أنّ الفَأرة تُدْخل ذَنبها[١] في قارورة الدُّهن الضيقة الرأس تدخل رأسها فتحصل مقصودها بهذا الطريق وهو يدل على عقلها.

- **الثاني**: أن النّحْل[٢] تبني بيوتًا مُسَدَّسة وهي لَنْ تفعل ذلك إلا لعلمها باحتياجها؛ لأن تبني بيوتها من أشْكالٍ موصوفةٍ بذلك تعلمها بهذه الحقيقة وقدرتها على بناء هذا البيت أزيد من عقل البشر ومن قدرته.

- **الثالث**: أن النّمْل يسعى في تحصيل الذخيرة[٣] وذلك؛ لعلمه أنه يحتاج في الزمن المستقبل إلى الغذاء وأنه لا يقدر على تحصيله في ذلك الوقت.

- **الرابع**: أن العَنْكبوتَ يتخذ له بيتًا على شكلٍ عجيب وينسج شبكة يصيد بها الذباب، ولا يكون ذلك إلّا بعد التفكر[٤] كيف يمكن اصطياد الذباب فهذه أفعال فكرية ليست بأولى من [٦٠/ظ] الأفْعَال الفكرية الإنسانية فوجب ثبوت العقل لها.

- **الخامس**: أن الجمَلَ والحمار إذا ذهبا طريقًا في ليلة ظلماء ففى الكرَّة[٥] الثانية يهتديان لسلوكه من غير إرْشاد مرشدٍ، والكراكيّ تأتي من أطراف عالم إلى آخر لطلب الهواء المُوَافق[٦] من غير أن تضِلّ، فهذا فعلٌ يعجز العقلُ البشريُّ عنه[٧]، وهي تقدر عليه.

- **السادس**: أن الدُّبّ إذا أراد أن يَفترس ثَوْرًا لا يمكنه قتله ظاهرًا

---

(١) ذيلها.

(٢) انظر: نَحْلُ عِبَر النّحْل للمقريزي (٧٢).

(٣) يعني يُخزِّن قُوته.

(٤) إذن فالحيوان يفكر لكن لا عقل له.

(٥) العودة.

(٦) وهو ما يسمّى بالهجرة، أو موسم هجرة الطيور.

(٧) أبدًا- فالله علم الإنسان وهداه هدايتين: إرشاد. دلالة وتوفيق.

فيستلقى في ممره ويظهر التماوت حتى يصل إليه فيثبُ عليه.

وحكى بعض الثِّقات المحبين للصَّيْد أنه شاهد الحُبَارَى[١] تقاتل الأفعى فتنهزم إلى بقلة فتأكل منها، ثم تعود إليها فقلع الرجل تلك البقلة والحبارى مشتغلة بقتال الأفعى فعادت الحبارى إلى منبتها، وأخذت تدور حول منبتها دورانًا متتابعًا حتى خَرَّت ميِّتة، فعلم الرجل أنها كانت [٦١/و] بأكلها من البقلة تعالجُ سُمّ الأفعى وتلك البقلة هي الخس البَرّيّ[٢].

وأما ابن عرس فتستظهر في قتال الحية يأْكُلُ السَّذَاب؛ فإن النكهة السدابية تنفر منها الأفعى.

والكلاب إذا دَوَّدَتْ بطونها تأكل من سُنْبل الحنطة[٣].

واللّقالق[٤] إذَا جرَحَت بعضها بعضًا دَاوَتْ تلك الجراحات بالسَّعْتَر[٥] الجبلي.

فانظر من أين حصل لهذه الحيوانات هذا العلاج[٦]؟!

وأما القنفذ يحس بريح الشَّمال[٧] وريح الجَنُوْب قبل هبوبه فيدخل جحره.

- **السابع**: إذا دنا الصَّيّادُ من مكان الفروخ التي للقَبْجَة[٨] ظهرت له

---

(١) طيرٌ يؤكل لحمه.

(٢) ما يسمّى في مصر بـ«الهندَبَاء» أو «الشيكوريا»، وفي الرازي (١٥/ ١١/ سورة النور): الجرجير البَرّي.

(٣) في الرازي: سنابل القمح.

(٤) جمع لقلق، وهو طائر معروف صوته كأنه يُلَقْلِقُ..

(٥) في الرازي: بالصَّعْتر، وهو صحيح يكتب بالصّادِ والسِّيْن.

(٦) بهداية الله لها.

(٧) ريحٌ تقابل الجنوب. * المصباح (١/ ٣٨٢/ شمل).

(٨) القَبْجَةُ: نوع من الطيور ويسمى: الحَجلُ والجمعُ: قبج، والذكرُ: يعقوب. * المصباح (٢/ ٥٨٦).

القبْجَةُ وقَرّبت منه مُطمِّعة لَه لأن يتبعها، ثم تذهب إلى جانب آخر سِوى جانب الفراخ.

- **الثامن**: ناقر الخشب لا يَجْلسُ على الأرض[1] بل على الشجر، يَنقرُ الموضِعَ الذي يعلم أنّ فيه دُوْدًا.

- **التاسع**: الغرانيقُ[2] [٦١/ظ] تصعد في الجَوِّ جدًّا عند الطَّيران فإنْ حجب بعضها عن بعض ضبابٌ أو سحابٌ أحدثت عن أجنحتها صوتًا خفيًّا[3] مَسْموعًا يلزم بسبب ذلك الصوت أن يرى بعضها بعضًا، وإذا نامت نامت على رجل واحدة قد اصطفت الرؤس [تحت أجنحتها إلَّا القائد] فإنه ينام مكشوف الرأس، فيسرع انتباهه فإذا سمع صوتًا أو حِسًّا صاح.

* والنَّعَامَة إذا جَمَعت من بيضِها عشرين أو ثلاثين قَسّمتها ثلاثة أثلاث: ثلثًا تدفنه في التراب، وثلثًا تتركه في الشمس، وثلثًا تحضنه، فإذا خرج فراخها كسرت ما في الشمس وسقت أفراخها ما فيه من الرّطُوْبة، فإذا اشتد الفراخ وقَويت أخرجت المدفون في الأرض وفتحت لَهَا ثقبًا، وقد اجتمع لها نمل وذبابٌ ودودٌ وحشراتٌ فتطعمه أفراخها، فإذا تناولته قَويت على الرعي ففَكِّرْ أَيُّها [٦٢/و] العاقل أي امرأة تهتدي في تربية أولادها إلى هذه الحيلة؟ وأكثر أفعال الحيوان يعجزُ عنها الأذكياء، ولولا كونها عَاقلةً ما صحَّ منها شيءٌ من ذلك.

وإذا ثبت كونها مُهتديةً عارفة بهذه الدقائق فَلَا بُعْدَ في كَوْنها عارفةً بربها مُسبِّحةً لخالقها.

وأمَّا النصوص: فمنها: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ [النمل: ١٨]،

---

(١) في تفسير الرازي (٥/ ٤١١): قلَّما يقعُ على الأرض، بل على الشجر.

(٢) جمع غرنوق وهو طائرٌ معروف.

(٣) في الرازي: حفيفًا.

وقول سليمان في الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٢١]، وهذا تهديد لا يَحْسنُ إلا مع الفاهم العاقل.

[ذكاء الطير وفهمه]

ومن ذلكَ قوله تعالى حِكايةً عن الهُدْهُد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وهذا الترتيب في إيراد الكلام لا يَتأتَّى إلَّا من عاقل ذكيّ، وذلك لأن أشبهَ الأشياء أخْذًا بقلوب الرجال النساء؛ ولذلكَ بدَأَ اللهُ بذكرهنّ في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، ولما لم يلتفت سليمان إلى ذكر المرأة، ثنَّى الهدهد بذكر المنازل فقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٦٢/ظ] فلما لم يلتفت لذلك ثلَّث بذكر الجاه والملك فلمّا لم يلتفت دَرَّجَ بالدِّين فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤]، هذا الترتيب لا يحصل إلا مع ذكاء عظيم وقوله تعالى في داود: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، والتكليف لا يتوجَّهُ إلّا على عاقل وقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]، فثبت بما ذكر من التجارب إمكان كونها عارفة، واحْتجَّ من أنكر ذلك، بأنّها لو كانت عارفةً عاقلة كان أثر العقل[1] ظَاهِرًا فيها؛ لأن إمكان العقل لها مع أنه لا يظهرُ له أثر في حقها بحيث لا يليق بالحكمة؛ لأنّا لا نَرَى العقل حاصلًا في شيء منها إذ لا تمييز لها بين ما ينفعها وما يضرها، فوجب القطع بأنها غير عاقلةٍ.

وأجاب الأولون: بأن المتكلمين لما استدلوا بدليل الإحكام والإتقان على كونه تعالى عالمًا أوردوا [٦٣/و] على أنفسهم سؤالًا وجوابًا، وقالوا: نحنُ نرى في العالم أفعالًا خياليَّة عن إحْكَام وإتقان فوجب أن يدُلَّ ذلك على جهل الفاعل.

---

(١) قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أعقلُ الطير الحمامُ.

أجابوا: بأن الإحكام والإتقان يدلُّ على علم الفاعل، أما عدم الإحْكَام والإتقان فلا يدل على الجهل؛ لأن الجاهل لا يمكنه الفعل المحكم أما العالم يمكنه الفعل الخالي عن الإحكام؛ فلذلك نشاهد صُدُور الأفعال المحكمة عنها ونشاهد عنها أيضًا أفعالًا غير محكمة، فتكون أفعالها المحكمة دالةٌ على عقلها وأفعالها الغير محكمة لا تدل على عدم عقلها.

رُوي أن الشِبْلِيَّ[1] رأى طيرًا في قفص وهو يقول: سبحان من في الهواء طيرني، وفي القفص صيَّرني، سيكون ما تُمْضِي سَخطَ العبدُ أم رضى، فاشتراه بثمن كثير وأطلقه، قال: أيستحي أن أخلي مَنْ [٦٣/ظ] سبح الله مسجونًا فنحن نسبحك من أول عمرنا من صَمِيم قلوبنا فخلصنا من أَلِيْم عذابك إنك أنت أرحم الراحمين آمين.

(١) أبو بكر دُلفُ بن جحدر الشبليُّ البغدادي الصوفي. وفي روح البيان (٦/ ٢١٧/ المحققة) حكاية هذه القصة عن سليمان عليه السلام.

ﷺ الفصل الثالث ﷺ

في الاستدلال بالنحل وبيان ما أودع فيه الباري جلت قدرته من عجائب الحكمة وغرائب الأسرار ليعتبر بذلك أولو الأبصار ويتذكر أرباب الاعتبار

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، هَذَا الحيوان ذُو هيبةٍ ظريفة(١) وخلقة لطيفة ومُهْجة(٢) نحيفة، وسطه(٣) مربع مُكعَّب، ومُؤخره مَخْروط، ورأسه مدور مبسوط وفي وسط بدنه أربعة أيد وأرجل(٤) متناسب المقادير كأضلاع الشكل المُسدَّس في الدّائرة.

ومنها ما يكون أصفر وأسود(٥)، وهو أصغر من الأصفر، والأصفر أكبر من الأسود وهو يلد من غير لقاح، وتتخذ بيوتًا(٦) مُسدَّسةً، وهو حيوان [٦٤/و] فهيم، فيه كَيْسٌ وشَجَاعَةٌ(٧) ونظرٌ في العواقب ومعرفة بفُصُول السَّنَة وأوقات المطر وتدبير المنزل(٨) والطاعة لأميره والاستكانة لقائده.

---

(١) انظر: نحل عبر النحل للمقريزى (٢٣)، الحكمة في مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ للغزالي (٩٢، ٩٣).

(٢) في عجائب المخلوقات للقزويني (٣٩٨): وبنية، وانظر: نحل عبر النحل (٢٣)، مسالك الأبصار للعمري (١٢/ ١٧٦).

(٣) في عجاب المخلوقات (٣٩٨): وسط بدنه.

(٤) نحل عبر النحل (٢٣).

(٥) في نحل عبر النحل (٢٥): ومن النحل سُودٌ، وهي أصغر من الصفر، والصفر أكثر من السود.

(٦) في نحل عبر النحل (٢٥): بيوتها.

(٧) في حياة الحيوان للدميري (٢/ ٢٩٧): فيه كيْسٌ ونظافة وطهارةٌ وشجاعةٌ.. إلخ.

(٨) في نحل عبر النحل (٢٥): المرتع والمطعم.

[أنْواعُ النّحل]

* والنحلُ تِسعةُ أصنافٍ، ستة[١] منها تأوي بعضها إلى بعض وهي تقسم الأعمال بينها، فمنها مَا يبنى بالشَّمعَ، ومنها ما يأتي بالعسل فيمُجُّه[٢] في بيت الشَّهد، ومنها ما يأتي بالماء فيمد العسل به.

وهو على ثلاثة ألوانٍ: غبرٌ وهو أصغرها وسودُ وهو أوسطها، وصُفْر وهو أعظمها.

والنَّحْلُ والنَّمْلُ أَكْسَبُ الحيوان وأدأبه على عمله.

والنحلة الكريمة تكون صغيرة مستديرة مختلفة اللون والمستطيلة غير [كريمة ولَا] عَمُوْلة، والنّحْلُ يخرج البطّال الذي لا يعملُ ولا يُشْفقُ على العسل من بينها.

وقد جعل الله تعالى فيها مَلِكًا مُطَاعًا يُسَمَّى اليَعْسُوْب[٣] يتوارث الملك [٦٤/ظ] عن آبائه، واليعسوبُ لا تلد إلّا يعسوبًا، واليعاسيب هي قادتها وعليها تأتلف فبانتقال اليعسوب تنتقل النحل وبإقامته تقيم، ومن العَجب أنه لا يخرج من الكُوَّارة[٤] ولا يذهب ليرعى؛ لأنه إن خرج خرج معه الجميع فيقف[٥] العمل، ومتى عجز[٦] عن الطيران حملته النحل، فإن ماتَ يعسوب الخلية أقامت النحل متعطلة لا تبني ولا تُعسِّلُ حتى تُولي

---

(١) نهاية الأرب للنويري (١٠/ ٢٨٧).

(٢) يدفعه بفيه مرة واحدة.

(٣) رئيس النحل وملكه.

(٤) الخلية الأهلية للنحل، أو شيءٌ يتخذ للنحل من القضبان أو الطين ضيق الرأس، والجمعُ: كوّارات، وكوائر.

(٥) عجائب المخلوقات للقزويني (٣٩٨)، وفي نحل عبر النحل (٢٨): فيضعف.

(٦) في نحل عبر النحل: ومتى عجز الواحدُ منها عن الطيران حملته النحل حملًا.

غيره، فإن لم تقم غيره هلكت، وجثته[١] كجُثة نحلتين وهو يأمرهم بالعمل ويرتب على كلٍّ [واحِدٍ] ما يليق [به] فيأمر البعض ببناء البيت، والبعض يعمل العسل ويخرج من لا يحسن ذلك وينصبُ بَوَّابًا على باب البيت؛ ليمنع دُخول ما وقع من النحل على القاذورات.

وإذا همَّ بالخُرُوج طَنّ قَبله بيوم أو يومين؛ ليعلم النحل[٢] فيستعدّ له ولا يكون في الخلية إلا واحدًا أو ربما [٦٥/ و] كانوا عدة إن كبرت[٣].

فإن كانوا أكثر من واحد صار مع كل طائفة.

وهو حليم[٤] لا يَلْدغُ ولا يغضب وفي ذلك عبرة؛ ولذلك قال تعالى بعد مَا قَصَّ علينا ما أَلْهَمه للنحل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي يعتبرون بما ألهمه النحل من لطيف[٥] الصَّنعة ودقّة الحيلة مَعَ ضعف البنية؛ ولذا قال بعض الأعيان[٦]: النحلُ أشبه الحيوان في تدبير أمره بالإنسان، بل أمره يشبه أمر من يؤسس المدائن الكثيرة الأهل، ويقال: إنَّ ذكور النَّحل لا تعملُ، والعملُ إنما هو للأناث، وليس له قوت إلا العسل، وهي تدخر العسل وتقاتل كل شيء عرض لدخائرها، وبعضها يقاتل بعضًا إذا أراد الدخول عليه.

قال ابنُ سِينا[٧]: وقد قاتل النحل نَحْلًا زَاحمها في خَليَّتها، وكان رَجُلٌ

---

(١) في نحل عبر النحل (٢٩): واليعسوبُ أكبر جثة يكون مثل جثّة نحلتين.

(٢) في نحل عبر النحل (٢٩): ليعلم الفراخ ما همَّ به فتستعد له.

(٣) في نحل عبر النحل (٣٠): وإذا كان اليعسوبُ عظيمًا سمى جحلًا. * المخصص (٨/ ١٧٧).

(٤) في نحل عبر النحل (٣٠): وملوك النحل لا تلدغ ولا تغضب.

(٥) في نحل عبر النحل (٣٠): لطف الصنعة.

(٦) في نحل عبر النحل (٣٠): ولذلك زعم بعض العلماء المتقدمين.

(٧) الشفا لابن سينا (١/ ٣٢٥).

يُعين النَّحْل الأهْليَّ[١] فلم [٦٥/ظ] يلسعه بعد ذلك البتة.

والنحل إنْ قَوي عَلَى شيء لسَعه أبدًا حتى يموتَ أو يهربَ، ولذلك يحتال آخذُ العسل على أخذه.

قال ابن سينا[٢]: وإذا لسَعَت النَّحْلة حيوانًا وخَلَّفَت الإبرةُ فيه ماتَت، وربما قتلت النحل مَنْ تُخَلِّفُ فيه الإبرة، وقد قتلت [مَرَّةً] فرسًا.

قال: وقد أُخبرتُ بقرية[٣] فيها خلايا النحل أنَّ الأكراد غَزَوْهُم وكادوا ينهبونهم [فسَلّطوا عليهم النّحْلَ] بأَنْ عَمدُوا إلى خَلاياها فشَوَّشُوْها وتواروا عنها، فأقبلوا على دوابّ الأكراد فقتلوها.

[مِن كَريم صِفاتِ النّحل]

وإذا كان النحل كريمًا لم يترك في الخَليَّة هَامَّة[٤] تُضِرُّ بالشهد إلّا قتلتها أو أخرجتها.

وجثة[٥] النحل ألطف أجثاث الحيوان، ولذلك يكره كلَّ مرعى يكون مُنْتنًا أو زَهِمَ الرائحة، ويكره الرائحة الزهمة والدهن ولا يضُرّ[٦] بشيء من معاش الناس، ويشرب الماء الصَّافي ولا يشرب إلا بعد إلقاءِ الثُّفْلِ[٧].

والنحلُ [٦٦/و] يجيء بالشمع على أعْضَائه، وتراه مُثْقلًا به، وقد أعيا الناسَ أن يعاينوا أخْذَ النَّحل للشّمْع، وظن قومٌ أنه شيء يكون بِبطُون النَّوَار

---

(١) هو نحل الخلية: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، وعكسه: النحل الجبليُّ.

(٢) الشفا لابن سينا (١/ ٤٢٣).

(٣) في الشفا (١/ ٤٢٤): من قُرى إسفينقان يقال لها: «اسفاكوخ». وهي بُليدة من نواحي نيسابور.
* معجم البلدان (١/ ٣١٧).

(٤) حشرة صغيرة.

(٥) في الشفا (١/ ٤٢٤)، ونحل عبر النحل (٣٥): وجنس النحل ألطف أجناس الحيوان كلها.

(٦) في نحل عبر النحل (٣٥): ولا يغترون بشيء من معايش الناس.

(٧) الحثالة والردئ.

كالغبار يكون من لزوجة، فيرون أن النحل ينحت[١] ذلك بأعضائها ويأتي به فيحكه عنها بقوائمه وأرجله.

وأما العسل فإنه شيء يكون في أعماق الأنوار من لطيف غذاء النبات قد انتهَى في النُّضْج فحَلَا وعَذُب.

فالنحل تَغْمس أَلْسنتها في أعماق النَّوَّار وتترشف تلك الجَنَاة[٢]، ومن اختبر ذلك عَرفهُ، وقد مَصَصْنا[٣] كثيرًا من النوار فوجدنا في أعماقها تلك الحَلاوة وذلك الترشف هو جَرْسُها العسل.

والنحل لا تُصَوِّتُ وكذا الذباب وإذا ترشّف النحلُ تلك الحلاوة من الزّهر والنّوار جمعها في صدره، وأقبلت إلى الشهدِ [٦٦/ظ] فأفرغته في خروق البيوت وإذا ملأ بيوت الشهد من العسل غَطَّاها بغطاء رقيق من شمع حتى يكون الشمع محيطًا به من جميع جوانبه كأنها رأس بُرْنيَّة[٤] مسدودة بقراطيس لينضج العَسَل، فإنها إن لم تفعل ذلك فسد الشَّهدُ وتولَّد فيه دُوْد[٥]، فإن قويت على تنقيته سَلم الشَّهْدُ وإلا فَسد [كُلُّه].

---

(١) في نحل عبر النحل (٣٦): تحت.

(٢) الشيء الذي يُجتنى.

(٣) القائلُ هو التقيُّ المقريزي.

(٤) إناءٌ من خزف.

(٥) في نحل عبر النحل: يسمى العنكبوت.

[أفضَلُ أزمَنة اشتيار العَسَل]

والنحل يَعملُ العَسلَ في زَمَانين: الربيع والخَريف، والربيعُ عَسَلهُ أَجْوَدُ وأكثر(١).

[حبُوب اللِّقَاح]

وهي تجيءُ لبيوتها بشيء كالخَبِيْص(٢) يابس(٣)، وفيه بعض لين ليس بعسل وَلا شمع ولَا شَدِيْد الحلاوة ولا عَذْب، حلاوته كالتين [تجئُ بِهِ النّحلُ كما تجئ بالشّمْعِ، تحملُه] على أعضادها [وسوقها] وتضعه في الخروق مكان العسل ولا تكثر النحل منه إلا في السنة المُجْدِبة.

وهو يقال له: «العِكْبرُ» وأكثر ما تأتي به من السِّدْر(٤)، والناس يأكلونه كالخبز ويجعلونه في المزاود(٥) في السفر، وهو مُفسدٌ [٦٧/و] للعسل، والنحل تأكله إذا لم تجد غيره.

ولا يأكل من العسل إلا بقدر شبعه وإذا قلَّ العسل في الخلية قرنه بالماء ليكثر؛ خَوْفًا على نَفْسه من نَفَادهِ.

[نزاهَة النّحل ونظافتُهُ]

والنحل يَكْره النتن ولا يَنْجوا(٦) إلا حال الطيران، أو في موضع منفرد من الخلية بحيث لا يختلط ببنيانها.

---

(١) نحل عبر النحل (٣٨). والاشتيار: الاجتنَاء.

(٢) نوعٌ من الحلوى عند العرب، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّه.

(٣) في نحل عبر النحل (٣٨): نائس!!.

(٤) وهو شجرُ النّبْق.

(٥) أوعية المسافرين جمعُ: «مِزْود»، و«مِزودة».

(٦) يتبرّز.

وإذا امتلأت بيوتُ الشمع[١] بالعسل ختمته بشَمْع رقيق تجعله على أفواه البيوت ورُبَّما خلطت الختم بشيء أسود جدًّا حريف شبيه بالشمع وهو من الأدوية الكبار، للضّرْب[٢] والجُروح.

ومن خاصيته أنّه يُجْلبُ[٣] للشّوْك والنَّصْل.

والنحل يحسّ بالبرد والمطر [وعلَامةُ ذلكَ لُزوم الخليّة][٤].

وفي لطف إحساس كثير من الحيوان عَجبٌ عجيب وَفيه عبرةٌ لأولي الألباب، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

[شَمْعُ العَسَل]

والشمع جُذْران بيوت النحل التي تبيض فيها[٥] وتفرخ وتكون خزانة للعسل.

[٦٧/ ظ] وَمِن عجيب معرفة النحل بما يُصْلحهُ أنه لما علم ضعفه شيَّد عُشَّه وحصّنه بالضِّيق والاعوجاج وإن كان باب الخلية واسعًا ضيَّقه وهي إذا أَصَابَتْ موضعًا نقيًا بنت فيه بُيُوتًا من الشمع أولًا، ثم تتخذُ بيوتًا لملوكها، ثم بيوتًا لذكورها، ثم بيوتًا لإناثها، ثم بيوتًا للعسل، ثم بيوتًا لفراخها، وهي تعمل الشمع أولًا ثم تلقي البزر وتحضنه [كما تحضُنُ] الطير، فالشمع لها بمنزلة العُشِّ للطَّير، والبزْر كالبيض فإذا ظهرت فراخها جعلته في بعض البيوت وختمت عليه بالشمع فإذا آن لها الخروج شَقَّت الختام وخرجت كالعنقود مع ملكها ثم تلتفت عليه وتبتدئ في العمل بعد

---

(١) وهي النَّخاريب. * نحل عبر النحل (٤٠).

(٢) وهو المسمّى بـ«البروبليس» الآن.

(٣) في نحل عبر النحل (٤١): يجذبُ الشوك والنّصول. قلت: يعني: يخرجها.

(٤) من نحل عبر النحل (٤١).

(٥) نحل عبر النحل (٤١).

ثلاثة أيام وعسلها أحسن العسل، وقيل: العسل الأبيض عمل الشباب، والأصفر عمل الكهول.

[مِنْ صفَات النّحل]

والنحل إذا كثر من ملوكه في خلايا قتلتها لئلَّا يتشتت النحل.

وكفى بالنحل [٦٨/و] شَرفًا تنويه الله بذكره في محكم كتابه حيث قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ٦٨- ٦٩] الآية، فالوحيُ الإلهام أي: خلق الله- تعالى- في أنفس النحل ابتداءً من غير سبب ظاهر قُوَّةً بها تدرك[١] منافعها وتجتنب مضارَّها وتحسن تدبير معاشها، لم يدر مخلوقٌ ما تلك القوة، وإن شارك النحل فيها كثيرٌ من الحيوان فلها عليهم مزيد[٢] اختصاص، فإنه[٣] تعالى عبَّر عن إلهامها بالوحي تشريفًا لها، بخلاف غيرها، فإنه تعالى قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]، وقال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فدخلت النّحْلةُ في هذا العموم وامتازت بأن صارت مِمَّا أوحى الله- تعالى- إليها وأثنى عليها فعلمت مَساقط الأنوار من وراء البيداء[٤]، فتقع هناك بروضة عَبقه[٥] [٦٨/ظ] وزهرة أنقَه، ثمَّ يصدر عنها ما تَحْفظه رضابا وتلفُظُهُ شرابًا.

---

(١) في نحل عبر النحل (٦٤): تدارك.

(٢) في نحل عبر النحل (٦٥): مزيّة.

(٣) في النحل: بأنه.

(٤) الصحراء.

(٥) طيبة الرائحة.

[أنْواع بيوت النّحْل]

وقَدْ جعل الله تعالى بيوت النحل ثلاثةَ أنواع: إمّا في الجبال وكُوَاها، وإما في الخشب المنحوت من الشّجر، أو المُجوَّف منها، وإمّا فيما يَعْرش الإنسانُ[١].

وأكثرُ بيوتها في الجبال، ثم في الأشجار، ثم فيما يعرش الناس[٢]، وأباح تعالى للنَّحْل أكل ما شاءت من الأشجار بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٩]، وقد أَذِنَ للنحل في سلوك طرق ربها لطلب الرزق، وذلل لها الطرق أي سَهْلها.

ثمّ ذكر ما أنعم به علينا من العسل الذي يخرج من النحل بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ [النحل: ٦٩]، لدلالة القرآن على أنها تَرْعى الزّهْر فيستحيل في أفواهها عسلًا، ثم تلقيه من أفواهها فيجتمع من القناطير فتبارك الله أحسن الخالقين، وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ [النحل: ٦٩]؛ لأن [٦٩/و] استحالة الأطعمة لا تكون إلّا في البطن.

ثم عدَّدَ أنواع العسل الذي أنعم به على عباده فقال: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ٦٩]، يعني: أحمر وأبيض وجامدًا وسائلًا؛ ليتذكروا قدرته سبحانه على الإيجاد والاختراع، فإنَّ الأصْل واحد وما يكون عنه مختلف بسبب[٣] تنوُّع غذائِه، كما اختلف أيضًا طعمهُ بحسب اختلاف مراعيه.

ثُمَّ وَصَف تعالى هذا الخارج من النحل بصفة شريفة وهي الشِّفاءُ الذي أودعه فيها فقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

---

(١) أي: يهيئ من الخلايا ونحوها. * نحل عبر النحل (٦٦).

(٢) وهي أقلُّ بيوتها. * نحل عبر النحل (٦٦).

(٣) في نحل عبر النحل (٦٨): بسبب وقوع.

[معنَى فيه شفاءٌ للناس]

واختلف في قوله: ﴿شِفَآءٌ﴾: هل هو على عمومه أم لا؟ فذهب قوم إلى أنه عام في كُل حال ولكل أحد، ولذا كان عبد الله بن عُمر لا يشكو قُرْحة ولا شيئًا إلا جعل عليه عسلًا[1]، وكان عوف [بن مالك] الأشجعيُّ يكتحلُ بالعسل ويداوي به كُلَّ سقم ومرض[2].

وذهب آخرون إلى أنه ليس بعام [٦٩/ ظ] في كل علَّةٍ وكل إنسانٍ، وإنما أخبر بأنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية بعض الأمراض لا كُلَّها؛ لأن قوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرة في سياق الإثبات ولا عموم فيها باتفاق أهل العربية والتحقيق: أنّ من قوى يقينهُ وصدق عزمه استشفى بالعسل في كلِّ جميع الأدواء، وأنّ من ضعف يقينه وكان في شكٍّ وتردد بين ما جاءَ به القرآن وما ذكره الأطباء مأكول على ما تعلّق به.

وقد اعترض على من قال بعموم منفعة العسل أنه يضرُّ ببعض الناس كمن عنده صَفْراء مُحْرقَة فإنّه إذا شرب العسل عظمت مضَرَّتهُ.

وأجيب بأنّه قد تقرر أن ما من شيء وإن عظمت مضرته[3] كالأفعى ونحوها إلّا وفيه منفعةٌ ما، فالحكم للغالب، فمن غلبت منفعته مضرَّته قيل فيه: نافع بإطلاق، وما غلبت مضَّرته منفعته قيل فيه: ضارٌّ بإطلاقٍ.

[٧٠/و] قال الغزاليُّ في «الإحياء»[4]: انظر إلى النَّحْل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتًا، وكيف استخرجت من لُعَابها الشَّمْع

---

(١) رواه ابن زنجويه في تفسيره (٥/ ١٤٥/ الدر المنثور) وتمامه: حتى الدُّمّل إذا كان به طلاه عسلًا. فقلنا له: تُداوي الدُّمَّل بالعسل؟ فقال: أليس يقول الله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٣٨).

(٣) قلت: والتحقيق أنه لا ضرر منه إذا أُخذَ بكيفية معينةٍ- والله أعلمُ.

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣١٨).

والعسل وجعل أحَدهما ضِياءً[١] والآخر[٢] شِفاءً، ثم لو تأمَّلْتَ عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها من النَّجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جُملتها وهو أكْبرُها شَخصًا [وهُو أميرها].

ثُمّ مَا سَخَّر الله تعالى لأمِيْرها من العدل والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل منها على باب المنْفَذ كُلَّ ما وقع منها على نجاسة به لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيرًا في نفسك وفَارغًا من همِّ بطنك وفَرْجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وأبناء جنسك.

ثم دَعْ عَنك جميع ذلك وانظر إلى بنيانها بيتًا منَ الشَّمْع واخْتيارها من جميع الأشكال الشكل المسدّس فلا تبني بيتَهَا مُسْتديرًا ولا مُرَبَّعًا ولا مُخمَّسًا [٧٠/ ظ] وإنما اختارت المسدّس لخاصية يقصر فهم المهندسين عن دَرك ذلك، وهُو أنّ أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعَةٌ وشكل النحل مستدير ومستطيل[٣]، فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة.

ثم لو بناها مُستديرة لبقيت خارج البيوت فرجٌ ضائعة، فإنَّ الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع مُتراصّة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير.

ثم تتراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصيَّة هذا الشكل فانظر كيف ألْهَم اللَّهُ تعالى هذا الحيوان[٤] على صغر جرمه اتخاذ هذه الأشكال المتساوية الأضلاع بحيث

(١) يعني الشّمْع.
(٢) يعني العسل.
(٣) في الإحياء: مستدير مستطيل.
(٤) في الإحياء: النحل.

لا يزيد ضلعٌ عن ضلع ولا ينقص لُطفًا به وعناية بوجود ما هو محتاج إليه؛ ليتهيّأ عيشه فسبحانه ما أعظم [٧١/و] شأْنه وأوسع فضله وامتنانه.

* وقال بعض الحكماء: بيوتُ النحل من أعجب الأشياء؛ لأنها مبنية على الشّكْل الذي لا ينحَرِف كأنه استنبط بقياس هندسيّ ثم هو من دائرة مسدسة لا يوجد فيه اختلاف فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من الثلاثة إلى العشرة إذا جمع كل واحدٍ منها إلى أمثاله لم يتصل وجاء بينهما فرج إلا الشّكل المسدَّس، فإنه إذا اجتمع إلى أمثاله اتصل كأنَّه قطعة واحدة بغير قياس ولا آلةٍ ولا بيكار[1]، بل ذلك من أثر صُنع اللّطيف الخبير، وإلهامه إياها بحكمته الباهرة، ذلك تقدير العزيز العليم.

---

(١) آلةٌ هندسيّة على شكل رقم (٨) يُرسم بها الأشكال المختلفة، ويقال لها: «الفِرْجَار»، و«البَرْجَل».

❁ الفصل الرابع ❁
في الاستدلال بالبعوض

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، والمقصود هنا بيانُ شَرْح عجائب خَلق الله في خلق البعوض، وذلك [٧١/ ظ] من وجوه:

* **الأول**: أن أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل، ثم مع كبر جثته ليس له إلا أربعة أرجُل وخرطوم وذنب، وأما البَعُوضةُ فلها مع هذه الأعضاء زيادة يدين زائدتين، وأربعة أجنحة، ثم إنها تناسب الفيل في الفم والخرطوم ولها أعضاء أخر لا تدركها أبصارنا ولا يحيط بها إلا خالقها.

* **الثاني**: البعوض يدُلُّ على أنّ الاستيلاء على الغير ليس بالقوة والشِّدة وكثرة العدد بل بنَصْره تَعالى وعنايته.

ألَيْس نَمروذُ كان أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم سُلْطانًا وأشدّهم صولة ثُمَّ إنّ بعوضةً طارت إلى دماغه وكانت تؤذيه وتقع على الدغدغة فيه وكان أكبر محبيه وذويه من يضر به على دماغه مائة ضربة بشدة وقُوة حتى تسكن تلك الدغدغة(١).

وإن كان الإنسان ما شاهد نُمْروذ أو حاله فيعتبر [٧٢/ و] بنفسه، فإنه إذا وقعت بعوضةٌ على رأسه ووجهه فربما لطم وجهه مرارًا ليصيبها فتطير ولا يصيبها فيبقى أثر اللطم على الخد من غير أن يؤذيها.

* **الثالث**: أن الصَّانع البشريّ(٢) يقدر أن يُصوِّر فيلًا من خشبٍ أو حديدٍ ولا يمكن أن يصور بعوضةً من ذلك، فعلى هذا البعوضة أشرفُ من

---

(١) انظر: مثير الغرام في فضل الخليل عليه السلام للتدمري (٣٧/ بتحقيقي).

(٢) الرسّام، أو النّحات.

الفيل فإنهما يشتركان في ذلك وأجزاء كلٍّ منهما دالةٌ على قدرة الصانع وحكمته، فإنَّ كل ما في الفيل من الدلائل في البعوض ولا عكس، وظهر أن الصَّانع البشري يمكنه تصوير الفيل إلا البعوض، فالبعوضَةُ أشرفُ من هذا الوجه، ثم إن اعتبرت الأعضاء الظاهرة فالبعوض أزيد فيها من الفيل؛ لتعلم أنّه لا عبرة بالصُّور الظواهر(١) بل بإعانة الله وتأييده.

* **الرابع**: اعتبر قُوَّة حواسّ البعوضة وكمال معرفتها بمصالحها [٧٢/ ظ] وأما كون بعضها شبيهًا ببعض ففيه حكمةٌ عجيبةٌ، ولذلك أنا بيّنّا أنه لو حصلت المشابهة بين الأشخاص الإنسانية اختلت مصالح العالم حتى لا تميز المرأة زوجها عن غيره، وما كان يتميز مالك الدار عن غيره ويفضي ذلك إلى مفاسد عظيمة في العالم فلرعاية هذه المصالح ميَّز الله كل إنسان عن غيره شكلًا وصوتًا، وأمَّا الحيوان الأهليّ فغير مُكلَّف، فلم تختل مصالحه بالمشابهة في الخلقة والصورة لكن الإنسان ربما ينتفع بفرد معين منه كأنْ يكون هذا الفرس أشدّ رَكْضًا(٢) من غيره، فلهذا ظهرت المخالفة بين صورها لكن المخالفة فيه أقلّ من المخالفة في الإنسان.

وأما الحيوانُ البرِّيُّ(٣) فحاجة الإنسان إليه قليلة وانتفاعه بين نادره فكانت المخالفة فيه صورة وشكلًا فمن المخالفة بين صور الأهليّ.

وأما الحيوان الخسيس الذي [٧٣/ و] لا تتعلق به حاجةُ الإنسان فلا تحصل المخالفة بين صوره البتة فكان في المشابهة بحيث لا يمكنُ تمييز بعضها من بعض، وهذا الترتيب المذكور في تخليق أبدان الحيوان يدلُّ على

---

(١) كما قيل:

لَا بأسَ بالقَوم مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ ** جِسْمُ البغالِ وأحْلَام العَصَافير

(٢) جريًا شديدًا.

(٣) يعني الوحْشيّ.

أنها بأسرها خلقت لمنفعة الإنسان على وفق مصلحة.

وإذا عُلِمَ هذا فنقولُ: إنَّ امتيازَ الإنسان على جميع الحيوانات ليس إلّا لكونه عارفًا بالله مُشْتغلًا بطاعته دلّ على أن كل الحيوان خلق لهذه الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ودلّ أيضًا على أنَّ خلق الحيوان ليس هو بالطبيعة ولا بالخاصية، بل المؤثر فيها هو قدرةُ الصّانع المختار حتى إنه حين تعلقت المصلحةُ بإظهار المخالفة لم يظهرها، فسبحان من لم تَخْلُ ذَرَّةٌ من ذرّات الوجود عن دلائل ظاهرة وبراهين باهرة على كمال قدرته [٧٣/ ظ] وغاية حكمته.

أما حسن البصر فإن البعوض إذا وقع على عُضو من أعضاء الإنسان فلا يزالُ يذير خُرْطومه يطلب تلك الثقبة، فإذا وجدها غَوّص خُرطومه فيها.

فمن الذي هداه إلى مقصوده من جَذبِ الدَّم ومن الذي عرفه أنَّ ببدن الإنسان منافذ ومسام وأن إدخال الخرطوم فيها أسهل من إحداث منفذ في الجلد(1)؟!

وأما حُسْنُ السمع، فلأنّ البعوض إذا وقع في الليلة الظلماء على الإنسان، فإذا حاول الإنسان تقريب يده منه حسَّ به فطار، فمن الذي أعطاهُ هذه القُوّة السامعة بحركة اليد؟ ومن الذي أعلمه بأن الإنسان يعامل تلك الجناية بالقتل؟ وانظر كيف هداه سُبحانهُ إلى تَحْصيل الغداء الموافق ثم أودع في خياله أنه لابد من الحذر فهو أبدًا مُستعدٌّ للفرار، وكلما فكَّر العاقل علم أن مثل هذا التدبير لا يتأتي إلا [٧٤/ و] من حكيم خبير.

* **الخامس**: تأمّل في صغر جُثَّة البَعُوْض، ولا شك أنَّ خُرطومه أصغر من خرطومة الفيل، ثم إنه مع غاية صغره مجوَّف، ولولا تجويفه ما أمكنه

---

(١) الله تعالى الهادي.

امتصاصُ الدم منه، وتأمل مع كونه مجوفًا كيف تكون غاية وقته، ثم إنها مع غاية دقتها كيف تكون قوتها وشدَّتها؛ فإنها تغوص بخُرْطومها في جلد الجَاموس والفيل على شدة ثخانته وتستخرج الدم منه كما يضرب الرجل إصْبعهُ في الخبيص.

* **السادس**: أنه سبحانه خلق في خُرطومه غضونًا كثيرة ليست في خرطوم الفيل فتارة تمدها وتطولها وذلك عند غوص الخرطوم في الجلد وتارة تقبضه إلى نفسها وذلك عند الإخراج، فتأمل في كل واحد من أجزاء تلك الغضون بأنه على قياس خرطوم الفيل لابد أن يكون يندرج من الغلظة إلى الدقة على تناسب [٧٤/ ظ] مخصوص، ولابد أن يكون اختص كل من تلك الأجزاء بشكل وصفة مخصوصة لا يقدر على ذلك التشكيل والتصوير إلا القادر الخبير سبحانه ما أعظم شأنه.

* **السابع**: تأمل في جَسَد البَعُوْض في أنه أصغر [جسمًا] والنُّحُول[١] وخرطومه أصغر منه ورأس خرطومه، أصغر من خرطومه ثم أودع تعالى في رأس الخرطوم السم وفيه فائدتان:

- **الأولى**: أن ذلك السم إذا انْصَبّ على ذلك الموضع من الجلد أفسد مزاجه.

- **الثانية**: أن تلك الحرارة السمِّيَّة تعين البعوض على هضم الدم المخصوص، وقال العلماء: الحكمة في خلق السم بين فكي الحية أنه لا أضراس لها تقوى على مَضْغ الأغذية، فخلق الله بين فكّيها سُمًّا قويًا حادًا مُنْضحا قاطعا، فإذا قبضت على جثة حيوان أقبل السمُّ على الجسم فَهَراه[٢] فورًا، فتبلعه وتسم به، ولو لم يخلق لها ذلك السم لم يمكنها [٧٥/ و] الأكل

(١) يعني: نحوله.

(٢) قطعه.

إذْ لا أسنان لها ماضغة طاحنة، فكانت تموت جوعًا.

فبنية البعوض صغيرةٌ وحرارة بدنه قليلة ولا أسنان له.

وخلق الله في رأس خرطومه ذلك السم إعَانةً على هَضْم الغذاء.

واعلم أن سُمّ البعوض له قوةٌ شديدةٌ في الكيفية؛ ولذلك إذا كثر اجتماع البعوض في جسد اسْودَّ، ورُبَّما مات.

ثم هنا حالةٌ أخرى أعجب من كلِّ ما مر هوان جثة البعوض في غاية الصغر وخرطومه أصغر، ورأس الخرطوم أصغر، ثم إن البعوض إذا وضع رأس خرطومه على محل من بدن إنسان فإنه لا ينصب ما معه من السم، فإذا عضَّ موضعا آخر حصل منه مثل ذلك الألم فعلم أنه لا ينصب من سمه إلا القليل والكثير يبقى، وتأمّل إلى ذلك الذي ينصب على بدن الإنسان منه كم يكون في القلة والصغر، فلعله يكون [٧٥/ ظ] جوهرًا فردًا أو جزءًا لا يتجزأ إلّا في علم الله، ثم أودع في ذلك الجزء القليل من الخاصية والقوة ما يزعج الفيل فيقلقه ويجعله مضطربًا متحريًا وما أودع تلك القوة الشديدة سُمّ البعوض إلّا أعانه على إصلاح غذائه.

وكلُّ مَنْ له عَقْلٌ سليم وطبع مستقيم يشهد بأنّ هذا لا يكون إلّا من تدبير مُدبِّر عالم بجميع الكليات والجزئيات.

* **الثامن**: تأمل في البعوض إذا وقع على إنسان اعتمد على مَا له من الأيدي والأرجل وغوّص خرطومه في الجلد فإذا أحس بمجيء اليد أخرجه حالًا وطار قبل وصوله إليه، ولو أن الإنسان غَرز إبرةً أو مسلة جرٍّ[1] غليظ لم يخرجها إلا بتعب.

* **التاسع**: تأمَّل إذا وجد فرصة ومهلة مَصَّ دمًا كثيرًا حتى ينشق

(١) حَبْل.

فيموت وربما مصّ حتى يعجز عن الطيران، فإذا حاول الإنسان ضربه تَصلُ إليه [٧٦/ و] يده فيموت.

وفيه تنبيه للإنسان على أحوال دنياه وأُخراه.

* أما الدنيا: فلأنَّ الإكثار من اللَّذات والشهوات سببٌ للوقوع في الآفات، وأما الآخرة فلأن الإنسان إذا كان خفيفًا قليل العلانية فإذا وصل إليه نداءُ قوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٨]، طار من وَكْر مَكْر الدنيا إلى عُشّ عيش الآخرة فإن كان ممتلأً ثقيلًا ويحب الدنيا عجز [عنِ] الطيران فبقي في هاوية الجسمانيات وظلمات الجهالات.

* **العاشر**: تأمل في رأس البعوض، فإنه مع صغره جعله الله منقسمًا بأقسام كثيرة وأودع في كلِّ قسم منها خاصية معينة؛ لأنه خلق في رأسه عينين وأودع فيها قوة أكمل مما للإنسان؛ لأنه يبصر في الظلمة الشديدة المَحلّ(١) الذي يمكنه مص الدم منه ويبصر مَسامَّ جلد الإنسان، فإذا وجدها غَوَّصَ خرطومه فيها [٧٦/ ظ] والإنسان لَا يرى ذلك.

وأيضًا أنَّه تعالى خلق له أذنين وأودع فيهما قوة سامعة، فلذلك يسمع في الظلمة هَفِيْفَ(٢) يد الإنسان، مع أن الإنسان لا يسمع أنه خلق في رأسه قُوَّة الشم ولذلك يحسّ بوقوع الجيفة من المكان البعيد، وخلق في الرأس الفم وأودع فيه القوة الذائقة ولذلك يرغب في بعض الطعوم ولولا القوة الذائقة، كان كذلك وأنه أودع في يديه القُوَّة؛ فلذلك يهرب من الحرِّ الشديد والبرد الشديد، وخلق في رأسه قوة الحفظ، ولولاه ما عرف الفرار عند مجيء اليد، وخلق فيه قوة الذكر، ولولاه ما ميز بين المعاني النافعة والضارة.

---

(١) المحلّ: المكان.

(٢) الصوت الخفيف.

انظر إلى رأسه كيف مقدار جرمه ثم قسم سبحانه ذلك الجرم الصغير إلى أجزاء صغيره كثيرة وأودع في كل منها خاصية معينة فهذا [٧٧/ و] عيناه وهذا أُذُناه وهذا أنفه، وهذا مقدم دماغه الذي فيه قوّة الحفظ، وهذا وسط دماغه الذي فيه قوة الذِّكْر(١)، ثم لا شك أنه تعالى خلق منفذ الغذاء ومخرج الفضلة ومتى كان كذلك فقد خُلِق له جَوفٌ وأمعاء وعروق ويخطرُ ببال عاقل أن يُسْند هذه التأثيرات العجيبة والتصرفات البديعة إلى الطبيعة، مع أنها قوة لا شعور لها بشيء ولا تمييز لها في شيء من الأحوال؟!

هذا لا يقوله عاقل، بل شواهد النظر وصريح الأفكار تنادي بأعلى صوتها على أنها إنما حدثت بتدبير من لا يَعْزبُ(٢) عن علمه وحكمته ذرة في الأرض والسموات ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوْض جناحها ... في ظلمة اللّيْلِ البَهِيْمِ الأَلْيَل
ويرى مَنَاطَ(٣) [٧٧/ظ] عروقها في نَحْرِها ... والمُخَّ في تِلْكَ العِظَامِ النُّحّل
اغفر لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ زَلَّاتِه ... مَا كَانَ مِنْهُ في الزَّمَانِ الأَوَّلِ(٤)

---

(١) يعني الذّاكرة.

(٢) يغيبُ ويشذّ.

(٣) خَطّ.

(٤) تنسب الأبيات لأبي نواس في ديوانه (٢/ ٢٧٧). وقد أوصى الزمخشريّ أن تكتب هذه الأبيات على قبره.

۞ الفصل الخامس ۞
في الاستدلال بالذباب

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ﴾ [الحج: ٧٣] الآية، هذه الآية من جملة الآيات التي أقر بفصاحتها الصّديق والزِّنْدِيق والموافق والمخالف.

حُكِي أنه اجتمع أربعة من الزنادقة بمكة: ابن المُقَفّع وابن أبي العوجاء وأبو شاكر الدَّيصَاني، وعبد الملك البصري وقالوا: نعارض القرآن وتواعدوا وتفرقوا إلى أن يجتمعوا في العام المقبل.

فاجتمعوا، فقال ابن المقفع: عَجزتُ عن مُعَارضة: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال البصري: عجزت عن معارضة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [الحج: ٧٣].

فهؤلاء الزنادقة فُصحاء العالم[1] وعجزوا عن معارضة هذه الآيات لجزالة ألفاظها وقوة معانيها وعجوبة [٧٨/ و] سياقها.

وفي هذه القصة نكتةٌ أخرى: وذلك أنَّ الأعداء لمَّا طَعنوا في فصاحته، وقالوا: كيف يليق بالله ذكر الذباب والعنكبوت؟ فأجاب الله: بأن لا يقدح في فصاحة القرآن إذا كان ذكرها للتنبيه على حُكْم المُبالغة في المعاني الدقيقة ثم أشد الزنادقة عداوةً وعلمًا بوجوه الفصاحة والبلاغة اعترفوا بالعجز عن معارضة الآيات المشتملة على ذكر الذباب فكان ذلك جاريًا مجرى معجزة أخرى.

(١) تمامه: وقال ابنُ أبي العوجاء: عجزتُ عن معارضة: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ فما أقدرُ أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئًا.

[خصَائصُ الذُّبَابِ]

واعلم أن الأحوال المذكورة في البعوض عائدة إلى الذباب ثم إنا نخُصُّهُ بوجوه:

* **الأول**: أن في الذباب ثلاثة أنواع من المنافع الدينية:

- **أحدها**: أنه يدل على التوحيد من وجهين:

- **الأول**: أنه من جملة من يسبح الله تعالى[1]: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهو يسبحه بحالة ولا يعصيه بعمله، والكافرُ: وإن كان يسبحه [٨٧/ ظ] بدلائل خلقته لكنه ينكره بلسانه ويعصيه بأعماله، فالذُّباب مع غاية حقارته خير من الكافر.

- **الثاني**: أنه تعالى جعل الذباب حُجَّةً على بطلان مَذْهب عبدة الأوثان فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، ومعبوداتهم لا تقدر على الذباب ولا عن ذَبِّه[2] عن أنفسهم ولا على استرجاع ما سلبه منهم ومن كان في الضعف والعجز هكذا فكيف يستحقُّ أن يعبد؟

* **الثاني**: أنّ الذباب يدلُّ على النبوة في أنه صحَّ في الأخبار أنه لم يكن الذباب والبعوض يقع على جسد المصطفى ﷺ[3]، فإنه كان أعزَّ الخلق على الله في أن يكون جلده مَرْكبًا للبعُوْض والذُّبَاب أو دمه مشربًا لهما فيكونان مُسلّطين على كلِّ الخلق، مع كونهما ممنوعين عنه على التعيين من أقوى البينات وأعظم المعجزات.

* **الثالث**: أن الذباب يدل على [٧٩/ و] طهارة الصحابة.

---

(١) هذا مشتركٌ بين كل المخلوقات.

(٢) دفعه.

(٣) انظر: توضيح فتح الرؤف المجيب في شرح أنموذج اللبيب للمناوي (٢/ ٧٠٢/ بتحقيقي).

روي أن المنافقين لما طعنوا في عائشة حصل للمُصْطفى ﷺ غَمٌّ عظيم فقال لعمر: «**ما قولك في هذا؟**» فقال: إني قاطع بكذبهم، فإن الله عصمك من وقوع الذباب عليك؛ لأنها تجلس على النجاسة فتلطخ أرجلها فكيف لا يعصمك عن التَّلطّخ بالفواحش؟ ثم قال لعلي: «**ما تقول؟**»[1]، فقطع بقول المنافقين... الحديث.

والمقصود من إيراد هذه الرواية أن الذباب وإنْ كانَ مُلطِّخًا مُلوِّثًا، لكنه دل على برآءة عائشة من كل لَوْثٍ وهذا يقتضي أن الذباب أشرف من المنافقين[2].

* **الرابع**: أنه تعالى أظهر بخَلقِ الذُّباب قبائحَ الكُفَّار؛ لأنه إذا وضع إناءٌ فيه مرقة حارّةٌ بادر الذُّبابُ إليها والإنسان يذُبُّها عن تلك المرقة وتأبى إلا أن تموت فيها.

وهذا يُشبه طريق الكفار فإن الأنبياء يذُبونهم عن النَّار [٧٩/ظ] ثم إنهم يلقون أنفسهم فيها، لكن عاقبة الذُّباب أحسن من عاقبة الكفار؛ لأن الذباب إذا مَات خَلُصَ من الألم والكافر إذا مات بقي في العذاب قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وأما فضائح الفساق فلأن في الذباب خِسَّةٌ عظيمةٌ ولا تميز بين الطيب والخبيث فتارة تقع على السُّكْر، وتارة على القاذورات وكذا الفاسق وضعت له مائدة الجنة وأُعِدّت له النِّعَم الطيبة، فهو تارةً يُقْدم على تلك النعم، وهي العبادة وتارة يجلس على مَائدة المعاصي وهي من جنس القاذورات، فمن أراد أن يَصُوْن نفسه عن خسَّة الذُّباب لا يدور حول الخبائث والمنكرات.

---

(١) السابق.

(٢) صحيحٌ والله صحيح، بل إنّ في أحد جناحيه شفاء كما ورد وصحّ.

* **الخامس**: أنه تَعالى أظهر بخلق الذباب عجز الجبابرة.

حُكي عن سعيد بن جبير أنه توارى عن الحجاج وكان لا يترك الجماعة فحذروه من ذلك فقال: كيف أتخلّفُ والمنادي [٨٠/و] ينادي: حيَّ على الفلاح، فأُتي به إلى الحجَّاج فقال: يا ابن جبير! ما الحكمةُ في خلق الذباب؟ وكان واقفًا عليه، فقال: ليُذلَّ به الجبابرة[١].

وذلك أنه يقع على النجاسة ثم يقع على وجوههم، فيظهر بذلك ذُلّهم حيثُ عجزوا عن دَفْع أضعف الخلائق وأحقرها عن أنفسهم.

* **السادس**: قال الحكماءُ: الذباب منفعته عظيمة لثلاثة أوجه؛ لأنه لا يظهر إلا في موضع العفونة والأماكن المستقذرة، ثم إنه سبحانه يخلق من بعض أجزاء تلك العفونة ذات[٢] الذاباب، ويجعلُ بقية العُفُونة غذَاءً له، ثم إنه لكثرة طيرانه بحركة الهواء يكون سببًا لإزالة العفونة عن الهواء فالذباب إذا طار وجلس على وجه الإنسان وآذاه فذلك في الحقيقة نعمة عظيمة في حق الإنسان ولولا وجوده وطيرانه لاستولت العفونات على الهواء ويؤدِّي [٨٠/ ظ] ذلك إلى مَضارَّ عظيمة[٣].

فكما أنَّ الطفل يتأذى من الفصد والحجم والعاقل يعم أنه من أعظم وجوه الإنعام في حَق ذلك الصِّبي وكذا وقوع الذباب على وجه الإنسان وإن تأذى منه الجاهل، لكن العاقل يعلم أنه من النعم العظيمة في حقه؛ لكونه سببًا لإزالة العفونة عن الهواء الذي هو مَادَّةُ الحياة.

---

(١) تروى هذه الحكاية لمحمد الباقر مع أبي جعفر المنصور.

(٢) ذلك.

(٣) وهذا غريبٌ جدًّا، بل هو من الأسمار!!.

[حكمة خلق القاذورات]

فإن قيل: خالق العفونات هو الله سبحانه فكان ينبغي أن لا يخلقها حتى لا يحتاج في دفعها إلى خلق الذباب؟ قلنا: هذا السُّؤالُ غير مختص بالذات، وإذا قلنا: إنه سبحانه خلق الخبز والماء وأنواع الفواكه ليلتذ [٨١/ و] بأكلها فيقول السائل: خالق الشهوة هو الله، فكان ينبغي أن لا يخلقها حتى لا يُحتاجَ إلى الخبز ولما كان هذا ردًا على القوة علمنا سقوطه.

ثُمَّ التَّحقيقُ أن الدنيا دار الأسباب فربط الله كُلَّ شيء بشيء حتى أنه كما يظهر قدرته في إيجاد الأشياء تظهر حكمته بجعل الأشياء أسبابًا لجميع الأشْياء.

* **السابع**: من أمثال العرب: أجْرَأ من ذُبَابٍ[١]، وأشْبَهُ من ذُبَاب[٢].

أما شدة جراءته فظاهرة؛ لأن الإنسان كُلما دفعهُ عنه مَالَ إليه، وإنما سمي ذبابًا؛ لأنه كُلّما ذُبّ[٣] آب[٤].

والحكمة في صفته بالجرأة أنه لما كان المقصود من خلقه إفناء العفونات باغتذائه بها وتارة بتحريك الهواء بسبب الطيران وَجَبَ كَوْنه موصوفًا بالجراءة حتى أنه متى ذُبَّ لا يمتنع من الحركة فيحصل هذا المقصود وكذا طيشه ولجاجَته[٥] من الأمور المعينة على هذا المقصود

---

(١) مجمع الأمثال (١/ ١٨١)، الدر الفاخرة (١/ ١٠٧)، (١/ ١١٤)، جمهرة الأمثال للعسكري (١/ ٢٩٨)، المستقصى (١/ ٤٦).

(٢) في المثل: أشْبهُ من الذباب بالذُّباب. * الدرة (١/ ٢٣٦)، الزمخشري (١/ ١٨٩)، العسكري (١/ ٥٣٨).

(٣) دُفِعَ.

(٤) عَاد.

(٥) إصرارهُ. وفي المثل: «أطيَشُ مِنْ ذُباب»: مجمع (١/ ٤٣٨)، الدرة الفاخرة (١/ ٢٨٤)، المثال لفيد (٦٣). وقالوا: «ألجُّ من ذُباب» الزمخشري (١/ ٣٠٨)، و«ألحُّ من ذُباب» الدرة (٢/ ٣٦٩).

[٨١/ظ] وغاية حكمته.

* **الثامن**: من عجائب خلق الله الذباب أنّا بيّنّا أن كثرة طيرانه مطلوب في الحكمة؛ لكونه سببًا لزوال العفونة عن الهواء فنقول إن كثرة طيرانه في العفونة تصير سببًا لوقوع تلك العفونة على أجنحته ومتى اجتمعت تلك العفونة على أجنحته ثَقُلَ وعجز عن الطيران فدبر الخالق الحكيم أن قَدّر أنّ الذباب ينظفُ جناحه برجْلِهِ عمّا التصقَ به من العفونة، ثمّ إنّه كما ينظف أجنحته، ينظف مقدم بدنه بيدين زائدتين وعينيه؛ لأن العين لا يكمل الانتفاع بها إلا إذا كانت صافية صقيلة، والحيوان الكثير الأجفان ينظف سطح الحدقة في كلِّ أوان في دفع أنواع البخار والغبار، فتبقى صافيةً.

فسبحان من خلق كل شيء على أحسن الوجوه وهَدَى كُل شيء إلى رعَاية مصلحته.

* **التاسع**: مِن عَجائب خَلق الذُّباب [٨٢/و] قول المصطفى ﷺ: «**إذَا وَقَع الذُّبابُ في إناء أحَدِكُم...**»[1] الحديث.

وهذه خاصية أطلع الله عليها رَسُولهُ بنور النبوة، وهَذَا مِنْ عجائب الخِلْقة؛ لأنَّ كون أحدِ الجناحين داءً والآخر دَواء مخصوصٌ بالذُّباب، ولا يُوْجَدُ في غيره.

* **العاشر**: أنّه جَعلَ تعالى حالتي الذباب بحسب الصَّيْف والشتاء دليلًا على اختلاف حالتي الإنسان بالموت وبالبعث.

فكمَا أنَّ الذُّبابَ يغيبُ في الشتاء ويظهر في الصيف فكذا الإنسان يغيب في اللحد بالموت ويظهر في القيامة بالبعث.

(١) رواه البخاري (١٠/ ٥٧٨٢)، وابن ماجة (٢/ ٣٥٠٥).

❁ الفصل السادس ❁

في الكلام على بقية الحيوانات(١) المذكورة في القرآن

[العنكبوت]

* قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، ولما اختفى المصطفى ﷺ في الغار نَسج العنكبوت على بابها، وحكمتهُ أنه تعالى خلق الأشياء الصغيرة [٨٢/ ظ] ثم جعلها سببًا للأُمور العظيمة؛ ليعلم الخلق أن الأمر بيده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومن عَجَائب العَنْكبوت أنه إذا أراد أن يبني بيتًا طلب زاويةً يُحيطُ بها ضلعان، ثم يبدأ فيلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب؛ ليلتصق به ثم يعدو إلى الجانب الآخر فيلصق الخيط من الآخر، ثم لا يزال يذهب ثانيًا ويجيء ثالثًا على تناسب مخصوص، فإذا أحكم الخيط كالسُّدَى استعمل باللُّحمة ويضيف البعض إلى البعض على مناسبة هندسية ثم يَرمي شَبكةً يقع البق والذباب، ثم يقعدُ في زاوية مُرْتصدة لوقوع الذباب في الشبكة فإذا وقع الصَّيدُ فيها بادر لأخذه، فإن عجز عن الصَّيْد بهذا الطريق طلب زاوية من حائط واحد يبني طرفي الزاوية بخيط ثم يُعلِّقُ نفسهُ فيها بخيط آخر ويبقى مُنكّسًا في الهواء ينتظر ذبابة فإذا رآها رَمى [٨٣/ و] نفسه إليها فأخذها وربط خيطه على رجلها وأحكمه.

---

(١) وهي كثيرةٌ وقد يسّر الله لي جمعها في بحثين:

* الأول: عَالم الحيوان في القرآن والسنة.

* الثاني: ظاهرة الجمال في خلق الحيوان.

ثمَّ ما من حَيوانٍ صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى، أترى أنه يعلم هذه الصنعة من نفسه، أو بتعليم آدمي؟! بل هذا من الإلهامات الرحمانية.

[النّمل]

وأما النمل فالحكمة في خَلْق النمل، وفي عجائب أحوالها فمن وجوه:

* **الأول**: أنّه أشَار تعالى بخَلْق النمل في الدنيا إلى كيفيّة حَال المتكبرين في القيامة: «**أمثال الذَّرِّ يطؤُهُم النَّاس بأقدامهم**»[1].

* **الثاني**: أن النمل يجمع للشتاء في الصيف وفي وقت الوجدان لوقت العدم فينبغي أن يكون العبد كذلك يشتغلُ بالطاعة في الدنيا ليجد الثواب في العُقْبى[2].

[الحمل فوق الطّاقة]

* **الثالث**: أن النمل قد يتكلف نَوى التّمْر ويحتمل العناء والمشقة العظيمة في ذلك ثم إنها لا تنتفع بتلك النواة إلا أن تنظر إليها ولا ينتفع بها قط فيكون نصيبها من [٨٣/ظ] النواة محض المحبة والمشقة وكذلك الحريص يحتمل المشقة في جمع الدنيا ويموت ولا ينتفع بها ولا يكون له فيها حظ إلا التعب.

* **الرابع**: أنّ النّمْلة تحمل أضعاف قُوَّتها وقُدْرتها فكذا الإنسانُ ينبغي أن يحمل أضعاف قوته من المشقة في الطاعات[3].

* **الخامس**: من عَجائب أَحْوالها أنها تتخذ تحت الأرض منازل وتملؤها من الحبوب والذخائر قوتًا للشتاء ثم تجعل بيوتها متعرجة عن البعض؛ لئلَّا يجري إليها المطر فإذا ابتلَّ من ذلك الحَبِّ شيء أخرجه إلى الشمس أيّام الصَّحْو ليجف ثم إنها تقطع الحبة نصفين خوفًا من أن تنبت

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وسنده صحيحٌ.

(٢) الآخرة.

(٣) هذا مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، ولحديث: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون».

وكذلك تُقَشِّرُ الشعير والباقلاء والعدس لئلَّا ينبت، وإذا أخرج من جحرها تذهب يومًا يَمْنةً ويومًا يسرة ثم إنّها في الذهاب والمجيء كأنها نوافل لا تنحرف عن الطريق ثم إذا همَّت واحدة منها بشيء لا تقدر على حمله أخذت [٨٤/و] منه قدرًا ورجعت أخْبرت البقية بذلك فيجتمع على الشّيء الواحد عَددٌ يحملونه وينقلونه ويقلبونه إلى الجُحْر ويتحملون العناء والشدّة، وإذا علمت بأن واحدةً توانت[١] في الحمل وتكاسلت في الإعانة اجتمعوا على قتلها ونهب ما لها عبرة لغيرها.

قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب: انظروا إلى النملة في صغر جثتها وجسمها ولطافة هيئتها، كيف دَبَّت على أرْضِها وضَنَّتْ على رزقها وتنقل الحبّة إلى جُحْرها وبعد مستقرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها متكفّل برزقها الرحمن ولا يغفلها المنّان ولا يحرمها الديّان وترى الصفا اليابس بالجحر الطامس[٢].

(١) قَصّرَت.

(٢) نهج البلاغة (٢/ ١٩٩) وهو كتاب منحولٌ على سيدنا عليّ.

[الأرضة]

وأما الأرَضَة فقد قال تعالى في قصة سليمان: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]، ومن عجائب أحوال هذا الحيوان أمور [٨٤/ ظ] ثلاثة أنه تعالى أعطاه مشفرتين تشبه الشرطين تقرض بهما الخشب ونوى التمر وتثقب الآجُرَّ والحجارة الصّلبة، وهذا من العجائب، فإنّ ذلك الحيوان على صغر جِرْمِه ورخاوة بدنه كيف حصل بمشفرتيه على هذه القوة العظيمة.

* **الثاني**: إذا ثقب الخشب من داخل بنَى لنفسه هناك بيتًا من طين صرف يشبه الإزاج والأرامة فمن أيْنَ وَجَد هناك التراب والماء حَتى جعله طينًا وبنَى لنفسه من ذلك الطين بيتًا.

* **الثالث**: أن الطير المسمى بناقر الخشب لا ينقر إلَّا على الموضع الذي يكون تحته هذا الحيوان فتأمل هذا الطائر بأيّ علامة عرف أنَّ تحت هذا الموضع هذه الأرضة وكيف تميز عنده ذلك الموضع من الشجرة عن جميع المواضع ومن أنْصفَ علم أنَّ علوم الخلق لا تصل إلى هذه الأسرار وأقرّ بجلالة علم الخالق [٨٥/ و] وكمال قدرته وحكمته.

[الفراش]

وأما الفراش، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة: ٤]، والفراش هو الحيوان الذي يتَهافتُ في النار، سُمِّي فراشًا؛ لتفرشه وانتشاره وشبه تعالى الخلق وقت البعث به؛ لأن الفراش لا يتوجه كُلّه إلى جهة واحدة، بل كل منها يذهب إلى غير جهة الآخر، وكذلك الناس يومئذ يفزعون ويذهب كل منهم إلى غير جهة الآخر وشبههم بالجراد أيضًا؛ لأنهم إذا بعثوا تموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش.

واعلم أن حال هذا الحيوان عجيب فإنه كما يقال يحب النور جدًّا ولذلك يلقى نفسه في النار ويبغض الظُّلْمةَ جدًّا فإذا أحس بالسِّراج ظنَّ أنه منفذ إلى عالم النور فيلقي نفسه عليه؛ طلبًا للتخلص من عالم الظلمة إلى عالم النور ومنهم من قال [٨٥/ظ] إنه يحب شَكْلَ النُّور فلفرط حُبِّه له جعل نفسه غِذاء للنّار.

وعلى التقديرين فَهو إمّا أن يكون مُحبًّا للنُّور، وكيفما كان فإنّه جعل نفسه غذاءً لمحبوبه، وإذا كان الأمر كذلك فبالأولى أن يجعل الإنسان نفسه غذاءً لنور معرفة الله تعالى وآثار محبته.

بل أهْلُ الهنْدِ يحرقون نفوسهم[1] على حُبِّ النّار، فلأن يحرق المؤمن قلبه في حب الله تعالى أولى.

(١) وَهُم الهندوس عُبّادُ الحيوان والأوثان.

❁ الفصل السابع ❁
في الاستدلال بحيوان الماء[١]

* قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وقد ذكروا أنه حصل في الربع المعمور أربعة عشر بحرًا منها: بَحْر الروم[٢]، وبحر فارس، وبحر الهند، وبحر السند، وبحر يأجوج ومأجوج، وبحر الحبشة، والبحر الأخضر، وبحر الشرق، وبحر الغرب، وبحر الشمال، وبحر الجنوب، وبحر طبرستان، وثمانية أنهار طوال كمثل سَيْحُون [٨٦/و] وجيحون والفرات والدجلة ونيل مصر ونيل الكراكيس ونهر مندب.

طُوْلُ كل واحد من مائه فرسخ إلى ألف ونحو خمسمائة نهر صغار.

وأما الآجام والغدْرَان والأنهار الصِّغار فلا تُعَدُّ ولا تحصى.

وأما الأرباع الثلاثة فإنها معمورة في البحر.

إذا عَرفْتَ هذا- فتأمل في الحيوانات المَوْجودة في بحار الربع المسكون وأوديتها وآكامها، ثُمّ تأمل فيما حصل من البحر المحيط حتى تعلم أن حيوانات البحر لا شبيه لها في الكثرة وعجائب الخلقة.

سبحان مَن لَا تخفى عليه خافية، ويعلم مُسْتقرها ومستودعها.

وقد ذَكَروا أنَّ ملك حيوانات البحر لشدته وقوته وعظم صورته وسَوْرته إذا تحرَّك تموج البحر من شدَّة سباحته.

برَّاق العين واسع الفم والجَوْف، كبير الأسنان يبلع كلَّ يوم من [٨٦/ ظ] حيوانات البحر عَددًا لا يُحصَى فإذا امتلأ جوفه باللحم يتلوّى ويعتمدُ على رأسه وذنبه ويَرْفع وسطه خارجًا من الماء مرتفعًا في الهواء كقوس قُزح،

---

(١) يعني كلّ ما يعيش في الماء.

(٢) المتوسط.

ومقصوده أنه يؤثر فيه حَرُّ الشمس فيستمرئ ما في جوفه، وربما عرض له في تلك الحال ما يشبه الغَشَى والسكر فيبقى كذلك أيامًا ثم ينعقد السحاب من تحته وترفعه الرياح الشديدة وترمي به إلى البر فيمُوْت ويأكل من جيفته الطير والسباع وترمي به إلى يأجُوْج من وراء السد فيصير غذاءًا لها.

ثُمَّ إنّ هذا الحَيَوان على عِظَمه لا يَتأذّى من شيء إلّا من حيوان صغير في البحر يَلْسَعهُ وهو لا يَقْدرُ عليه، فيذوبُ سُمُّهُ في جِسْم هذا الحيوان فيموت ويصير غذاءً لحيوانات البحر، وهكذا كلُّ الحيوانات فالجراد والنمل والذباب والبق وما شاكله غذاء للعصافير [٨٧/ و] والخطاطيف أغذية للبَواشق[١] والشّواهين[٢].

ثم إنّ هذه الحيوانات أغذية للنُّسُور والعُقْبَان[٣]، ثم إنها إذا ماتت أكلها الحيوان من النمل والذباب والدّود وغير ذلك.

وهكذا حال بني آدم إذا ماتوا أكلهم في قبورهم الدُّود والحشرات، وتارة يأكل صِغار الحيوانات كبارها، وتارةً يأكُلُ كبارها صغارها؛ ليحصل العَدْلُ؛ لأنّ بالعدل قَامَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْض[٤].

[صَدَفُ الدُّرِّ]

ومِن عجائب البَحْر صَدفُ الدُّر، يقال: إن له وقتًا مُعينًا من السنة يصعدُ فيه من قعر البحر إلى ظاهر سطح الماء في يوم المطر، فينفتح له أُذنان يُشبهان السِّفْطين[٥] فتحًا شديدًا، حتى لا يبقى فيها شيء من الماء

(١) جمع باشِق، من جوارح الطير وسباعه.

(٢) جمع شاهين كسابقه.

(٣) جمعُ عُقَاب.

(٤) كما ورد في الحديث.

(٥) وعاء الخوص.

المالح الذي في البحر، ثم ينزلُ برفْق إلى قَعر البحر الحُلْو، وتمكث هُناك منضمة على الصّدفتين إلى أنْ ينعقد منهُ الدُّرّ [٨٧/ ظ] والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسَلّم، والحمد لله رَبّ العَالمين- آمين آمين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهارس الكتاب

❁ فهرس الآيات القرآنية ❁

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾	[الذاريات: ٢١]	١٦
﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾	[الأعراف: ٥٤]	١٧
﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾	[المائدة: ٥٤]	١٩
﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾	[الذاريات: ٤٩]	١٩
﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾	[يونس: ٢٤]	٢١
﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ ﴾	[النحل: ٩٦]	٢١
﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾	[البقرة: ٣٠]	٢٢
﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾	[إبراهيم: ٣٤]	٤٠
﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾	[الرحمن:١٩- ٢٠]	٤٦
﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾	[القمر: ٥]	٤٦
﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾	[الرحمن: ٢٧]	٤٩
﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾	[الأنعام: ٧٩]	٤٩
﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	[آل عمران: ١٩١]	٥٢
﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾	[العلق: ١٩]	٥٢

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	[الذاريات: ٥٦]	٥٣
﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾	[البقرة: ٩٧]	٦٣
﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾	[الشعراء: ١٩٣-١٩٤]	٦٣
﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾	[ق: ٣٧]	٦٣
﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾	[البقرة: ٩٦]	٦٤
﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾	[ق: ٣٧]	٦٤
﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾	[البقرة: ٢٢٥]	٦٤
﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾	[الحج: ٣٧]	٦٤
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾	[الحجرات: ٣]	٦٤
﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾	[العاديات: ١٠]	٦٥
﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾	[الملك: ١٠]	٦٥
﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾	[الإسراء: ٣٦]	٦٥
﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾	[غافر: ١٩]	٦٥
﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾	[النحل: ٧٨]	٦٥

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْـِٔدَةً﴾	[الأحقاف: ٢٦]	٦٥
﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾	[البقرة: ٧]	٦٥
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾	[الأعراف: ١٧٩]	٦٥
﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾	[النحل: ١٠٦]	٦٥
﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	[الذاريات: ٥٦]	٦٩
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾	[المؤمنون: ١٢]	٦٩
﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾	[يس: ٣٦]	٧١
﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾	[النحل: ٥]	٧١
﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾	[النحل: ٨]	٧١
﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	[النحل: ٨]	٧١
﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾	[الزمر: ٦٩]	٧٢
﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾	[الأنبياء: ١٩]	٧٢
﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾	[غافر: ٧]	٧٢
﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾	[النجم: ٢٦]	٧٢
﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ	[يونس: ٦٢]	٧٣

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَحْزَنُونَ﴾		
﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾	[النساء: ٨٣]	٧٣
﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾	[الإسراء: ٧٤]	٧٤
﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾	[البقرة: ١٢٨]	٧٤
﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾	[طه: ٢٥]	٧٤
﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	[المائدة: ١١٤]	٧٤
﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾	[يوسف: ١٠١]	٧٤
﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	[الذاريات: ٢١]	٧٤
﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾	[طه: ١٢]	٧٥
﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾	[طه: ١٢]	٧٥
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[آل عمران: ٣٣]	٧٦
﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾	[التحريم: ١٢]	٧٦
﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾	[النجم: ٥]	٧٦
﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾	[الرحمن: ١-٢]	٧٦
﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾	[النساء: ١١٣]	٧٦

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾	[الأنعام: ١٢٤]	٧٦
﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾	[القيامة: ٢٠]	٧٧
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾	[المطففين: ١٤]	٧٧
﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	[البقرة: ١٨]	٧٧
﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾	[البقرة: ١٠]	٧٨
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾	[القصص: ٥٦]	٧٨
﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾	[البقرة: ٦]	٧٨
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	[البقرة: ٢٨٦]	٧٨
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	[الفاتحة: ٥]	٧٨
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾	[آل عمران: ٩٦]	٧٩
﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾	[فصلت: ١٦]	٧٩
﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾	[الذاريات: ٥٠]	٨٠
﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾	[الأنعام: ٩١]	٨٠
﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾	[البقرة: ٢٨٦]	٨٠
﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾	[البقرة: ٢٨٦]	٨٠
﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾	[البقرة: ٢٨٦]	٨٠
﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾	[الأعراف: ٥٤]	٨٠

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾	[الواقعة: ٩٠]	٨٠
﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾	[البقرة: ١٦٣]	٨٣
﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٣
﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٣
﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٣
﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٤
﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٤
﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٤
﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٤
﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾	[البقرة: ١٦٤]	٨٤
﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	[النحل: ٨]	٨٩
﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾	[الأنعام: ٣٨]	٩٠
﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	[فاطر: ٢٤]	٩٠
﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾	[النحل: ٧٩]	٩٢
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	[النور: ٤١]	٩٢

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾		
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾	[الملك: ١٩]	٩٢
﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾	[النمل: ١٨]	٩٥
﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ ﴾	[النمل: ٢١]	٩٦
﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾	[النمل: ٢٢]	٩٦
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾	[آل عمران: ١٤]	٩٦
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾	[النمل: ٢٤]	٩٦
﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾	[سبأ: ١٠]	٩٦
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	[المائدة: ٣١]	٩٦
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾	[النحل: ٦٨]	٩٨
﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	[الروم: ٢١]	١٠٠
﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾	[المؤمنون: ١٤]	١٠٤
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾	[النحل: ٦٨- ٦٩]	١٠٥
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾	[الشمس: ٧- ٨]	١٠٥
﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾	[طه: ٥٠]	١٠٥
﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾	[النحل: ٦٩]	١٠٦

الآيـــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾	[النحل: ٦٩]	١٠٦
﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾	[النحل: ٦٩]	١٠٦
﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾	[النحل: ٦٩]	١٠٦
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾	[البقرة: ٢٦]	١١٠
﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	[الذاريات: ٥٦]	١١٢
﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾	[الفجر: ٢٨]	١١٥
﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الأعراف: ٥٤]	١١٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ﴾	[الحج: ٧٣]	١١٧
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	[الأنبياء: ٢٢]	١١٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾	[الحج: ٧٣]	١١٧
﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾	[الإسراء: ٤٤]	١١٨
﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾	[الحج: ٧٣]	١١٨
﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾	[نوح: ٢٥]	١١٩
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾	[العنكبوت: ٤١]	١٢٣

الآيـــــــة	اسم السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾	[سبأ: ١٤]	١٢٧
﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾	[القارعة: ٤]	١٢٨
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾	[النور: ٤٥]	١٢٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

❁ فهرس المحتويات ❁

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة المؤلّف	١٥
البَابُ الأوّل: في عجائِب خلق الإنْسَان	١٦
خَاتمة	٢٤
تشريح الإنْسَان	٢٥
خلقُ الرأسِ مُدَوّرًا	٢٩
خَصَائِصُ دِمَاغِ الإنْسَان	٣٠
نِعْمَةُ الذّاكِرة	٣٠
كيفيّةُ الحِفظِ	٣٢
آياتُ اللهِ في خَلْقِ العَيْن	٣٤
آياتُ اللهِ في خَلْقِ الأُذُنين	٣٧
آياتُ اللهِ في خَلْقِ الأنفِ	٣٩
القلبُ أميرُ الأعْضَاءِ	٤١
آيات اللهِ في خلقِ الأفواه	٤٢
ظاهِرة الحكمة في خَلْقِ الرأس	٤٥
النوع الثاني: في آثارِ حكمته تعالى خلق الإنْسان	٥١
مَنَافِعُ خلقِ اليَدِ	٥٧
مَنَافع خلق الرِّجلين	٥٩

ظَاهرة الهداية ٦١
فَصْل: في حَالِ الإِنْسَان مِن ولَادته إلى موته ٦٣
فَصل: في شرح أحوالِ القلب ٦٩
البَاب الثالِث: في الاستدلال بأحوالِ الحيوانات على قُدرة الصّانِع الحكيم ٨٢
الفصل الأول: في الاستدلال الكُلِي بأحْوَالِهِ ٨٣
ظَاهِرة الكثرة والوَفرة في خَلْقِ اللَّهِ ٨٩
شُبْهَةٌ وجَوَابها ٩٠
الفصل الثاني: في الاستدلَالِ بأنواع الطيور على وُجُودِ الصّانِع ٩٢
ذكَاءُ الطّيْر وفَهْمُهُ ٩٦
الفَصل الثالِث: في الاستدلال بالنّحْلِ ٩٨
أنواعُ النّحل ٩٩
مِنْ كَريم صِفَات النّحْل ١٠١
أفضل أزمِنَة اشتيار العَسَل ١٠٣
حبوب اللِّقاح ١٠٣
نزاهَة النّحل ونَظَافته ١٠٣
شَمعُ العَسَل ١٠٤
مِنْ صِفَاتِ النّحل ١٠٥
أنْواعُ بيوت النّحل ١٠٦

معنَى ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ١٠٧
الفَصل الرابع: في الاستدلَال بالبعوض ١١٠
الفَصل الرابع: في الاستدلال بالذُّباب ١١٧
خصَائص الذُّباب ١١٨
حكمة خلق القاذورات ١٢١
الفصل السّادِسُ: في الكلام على بقيّةِ الحيوانات المذكورة في القرآن ١٢٣
العنكبوت ١٢٣
النّمل ١٢٥
الحمل فوق الطّاقة ١٢٥
الأَرَضَة ١٢٧
الفراش ١٢٨
الفَصل السّابع: في الاستدلَال بحيوان الماءِ ١٢٩
صَدَفُ الدُّرِّ ١٣٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com